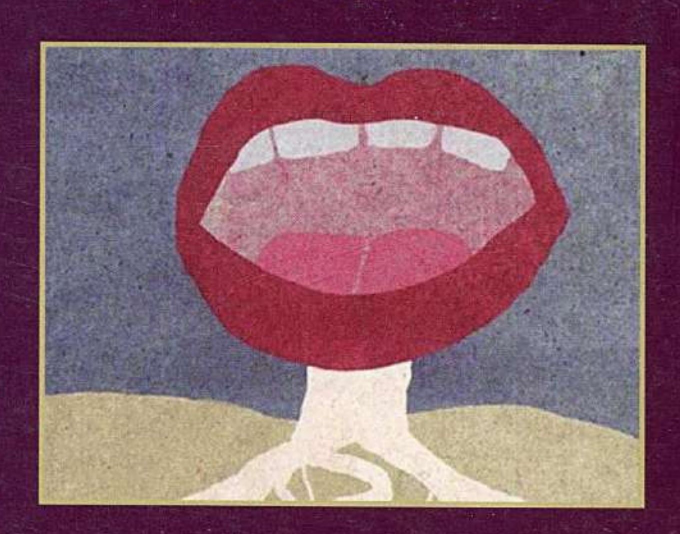
سوسير
أو
أصول البنيوية

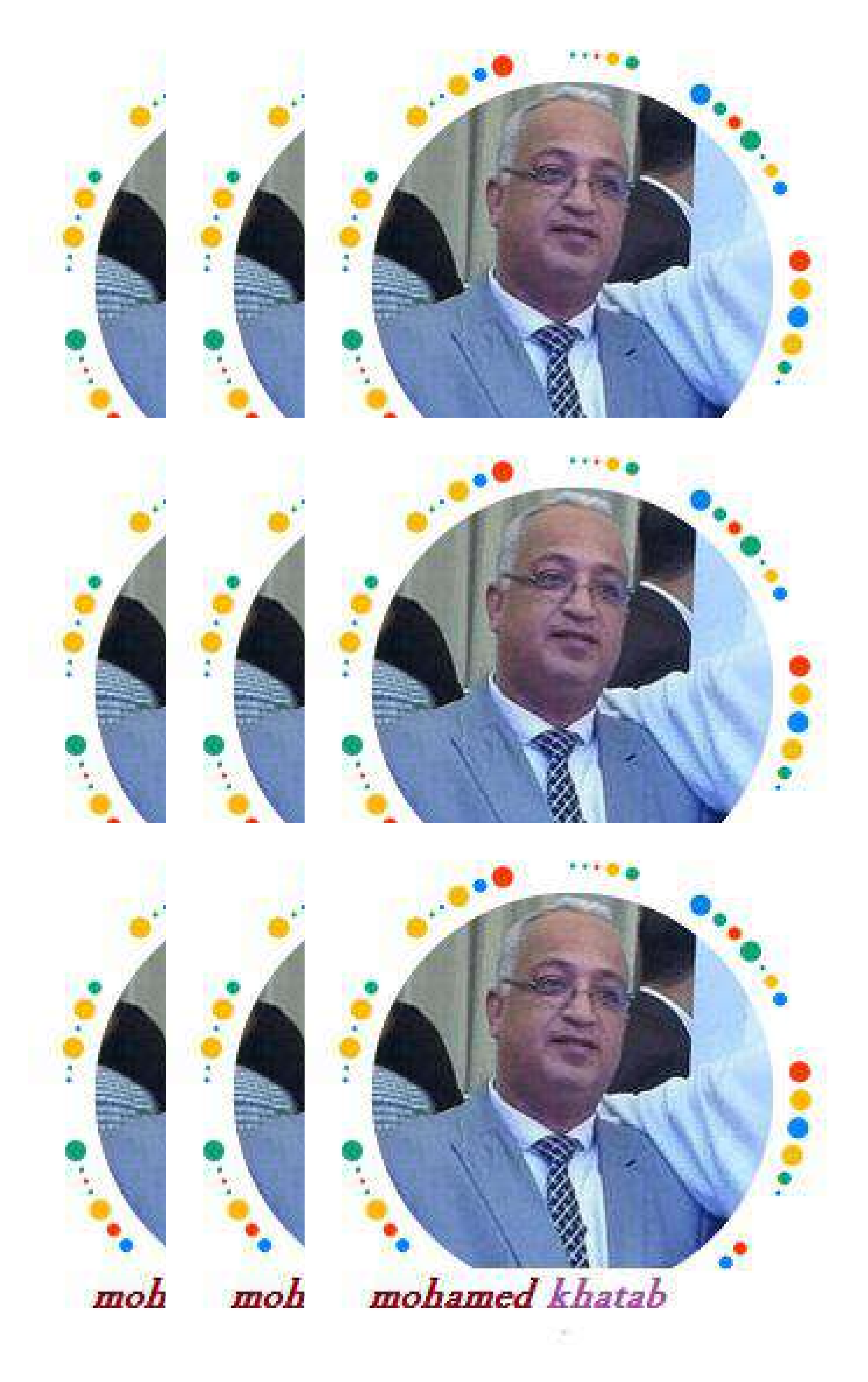
جورج مونان

ترجمة وتقديم د. جواد بنيس





مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان


mohamed khatab

سوسير

او أصول البنيوية

سوسير

او اصول البنيوية

تأليف جورج مونان

ترجمة وتقديم جواد بنيس




بيروت - لبنان

الكـــتاب: سوسير أو أصول البنيوية
الموضوع: علوم اللغة
تألـــــيف: جورج مونان
ترجمة وتقديم: جواد بنيس

تصميم الغلاف:
القسم الفني في
مؤسسة الرحاب الحديثة
تصميم وإخراج داخلي: حسين طه
hussein.taha@live.com

الطبعة الأولى: 2016 -2015

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

هـاتـف: 00961 3 359788
تلفاكس: 00961 7 241032
ص.ب: 11/3847 بيروت - لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com

ISBN 978-9953-594-42-2

تقديم الترجمة

حدثان هامان كانت لهما انعكاسات على التفكير اللغوي في نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر:

- أولهما اكتشاف القرابة بين اللغة السنسكريتية - لغة الهند القديمة - وأغلب اللغات الأوروبية سواء كانت قديمة مثل اللاتينية والإغريقية أو حديثة مثل الفرنسية والإنجليزية.

- ثانيهما ظهور وترسيخ مبدأ التطور في العلوم الطبيعية، وبعدها في العلوم الانسانية مما أدى إلى تفسير الظواهر اللغوية بالنظر إلى التطور الذي عرفته في مراحل سابقة.

لقد شرع لغويو القرن التاسع في دراسة اللغات ومقارنتها والبحث في تطورها. كما تم تصنيفها في عائلات لغوية على أساس انتسابها إلى أصل واحد مثل العائلة الهند أوروبية والعائلة الحامية السامية والعائلة الصينية التبتية وغيرها.

لكن المكسب الأكثر أهمية للسانيات القرن التاسع عشر، كما يقول جون ليونز، كان "صياغة المبادئ والمناهج المعتمدة لإثبات هذه

العائلات اللغوية وبالخصوص بناء نظرية عامة للتغيرات اللغوية وللعلاقات بين اللغات" (ص 1970/20)[1].

وبالفعل صاغ لغويو هذا القرن المبادئ الكفيلة بتفسير القرابة بين اللغات وفي مقدمتهما القوانين الصوتية التي اضطلع بتحضيرها راسموس راسك R. Rask وجاكوب غريم J. Grimm وقد توصل هذا الأخير إلى مجموعة من القواعد الصوتية تظهر التطابق بين كلمات تنتمي إلى لغات مختلفة انطلاقاً من أصواتها. فحيثما وجدنا مثلاً في اللغات الجرمانية F كان P هو المقابل له في اللاتينية والإغريقية والسنسكريتية. وبالرغم من أن غريم أثبت صحة قواعده الصوتية اعتماداً على شواهد متعددة فقد اعترف بوجود بعض الإستثناءات التي لم يتمكن من تفسيرها.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت في ألمانيا حركة لغوية تدعى النحويين الجدد أو "النحويين الشباب"، فقامت بانتقاد النتائج التي توصل إليها اللغويون السابقون وبإعادة النظر في مناهجهم. وكان من نتائج هذا التوجه الجديد أن أثبت النحويون الجدد الطابع المطلق للقوانين الصوتية - خلافاً لغريم- وقدموا تفسيرات لغوية للاستثناءات. وبذلك أصبح معهم البحث اللغوي أكثر دقة، إذ تتبعوا تطور الأشكال في لغة معينة وعبر مراحل محددة فتمكنوا من ضبط التطور وشرح أسبابه وانتهوا إلى اعتبار الدراسة التاريخية الموضوع الأساسي للسانيات.

---

1 - John Lyons, Linguistique générale, Paris, Larousse, 1970.

هذا بإيجاز هو المناخ العلمي الذي نشأ سوسير في ظله. لقد نشأ في مرحلة غلب عليها البحث التاريخي والمقارن، لذلك لم تبتعد دراساته العلمية الأولى عن هذا الإطار لاسيما **البحث حول النسق البدائي للمصوتات في اللغات الهند أوربية**[1]، وهي الدراسة التي جلبت الأنظار إليه مبكراً وجعلته يحظى بالتقدير في الأوساط العلمية.

ثم تأكدت مكانته بعد أن ناقش رسالته للدكتوراه حول استعمال الإضافة في السنسكريتية[2]. لكن سوسير معروف أكثر **بالمحاضرات**[3] التي ألقاها بجنيف وجمعها كل من ش. بالي و أ. سيشهاي ونشراها بعد وفاته. أين الجديد إذن في كل هذا؟.

لقد طرح سوسير في هذه **المحاضرات** تصوراً جديداً للسانيات يقوم على مجموعة من المفاهيم الإجرائية التي أصبحت إرثاً للمدارس البنيوية بعده مثل النسق واللسان والكلام والدال والمدلول والسانكرونية والدياكرونية والعلاقات المركبية والترابطية. وعوض استعراض مضامينها - وهو ما سيضطلع به جورج مونان في هذه الترجمة- سنكتفي بالإشارة إلى ترابطها العضوي داخل النظرية اللسانية السوسيرية.

---

1 -Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-eurppéennes, Leipzig, Teubner, 1879, 302 pp.

2 -De l'emploi du génitif absolu en Sanscrit, Génève, 1881.

3 -Cours de linguistique générale, Paris, Payot, 1985.

ولعل المسألة المركزية التي استأثرت باهتمام سوسير كانت تحديد موضوع ومنهج اللسانيات فجاء تمييزه بين اللغة والكلام واللسان ليؤكد بأن اللسان هو موضوعها الحقيقي. كما أن تمييزه بين السانكرونية والدياكرونية كانت غايته تحديد المنهج الكفيل بدراسة اللسان (السانكرونية) والنظر إليه باعتباره نسقاً مكوناً من وحدات متعارضة. ويبدو أن الثنائية الأخيرة توضح كيفية اشتغال اللسان الذي ينتظم بحسب محورين هما المحور المركبي والمحور الترابطي. الأول ذو بعد أفقي ومرتبط بالطبيعة الخطية للعلامات. أما الثاني فهو ذو بعد عمودي وله صلة بما يقيمه الذهن من علاقات بين وحدات لغوية لها سمات مشتركة (أنظر سوسير ص 170 وما بعدها).

ولا يخفى على أحد الصدى الذي خلفته هذه الأفكار سواء داخل اللسانيات أو خارجها. فقد نشأت الفونولوجيا البنيوية لمدرسة براغ متأثرة بهذه التعاليم، ونفس الأمر يمكن قوله بخصوص مدارس واتجاهات أخرى مثل الوظيفية والكلوسيماتيكية على سبيل المثال لا الحصر. كما تجاوز تأثير الأفكار السوسيرية حدود اللسانيات حيث نجد صدى لها في الفلسفة والتحليل النفسي والأنتربولوجيا والسميولوجيا... (أنظر دي مورو، مدخل **المحاضرات**). ومن جهة أخرى، لا يخفى الدور الذي أدته هذه **المحاضرات** على مستوى تجديد الدرس البلاغي والأسلوبي.

ولعل الميزة الكبرى للكتاب الذي أقدمنا على ترجمته تكمن في تقديمه النظرية اللسانية السوسيرية بأمانة وشمول وفي يسر، وهي

غايات استطاع جورج مونان، الذي يعتبر أحد أهم شراح سوسير في فرنسا، أن يحققها على النحو الأفضل. والمؤلف غني عن التقديم فهو معروف بدراساته الجادة في ميادين متعددة نذكر منها نظرية الترجمة والسميولوجيا وتحليل الشعر، إضافة إلى اللسانيات.

إن كتاب جورج مونان يتكون في الأصل من قسمين: يعرض أولهما للنظرية اللسانية السوسيرية مع الإهتمام بمنطلقاتها وروافدها، بينما يتكون الثاني من مجموعة من النصوص المأخوذة من المحاضرات. وقد اقتصرنا على ترجمة القسم الأول تجنباً للتكرار لأن النسخة العربية من كتاب سوسير أصبحت في متناول القارىء العربي[1]. وفي نفس السياق أجرينا تعديلاً على العنوان الفرعي مراعاة لمضمون الكتاب الذي يعرض لأصول البنيوية مع احتفاظنا بعنوانه الرئيسي. وأملنا أن تساعد هذه الترجمة على تقديم فهم حقيقي لسوسير ولمنطلقاته النظرية الكبرى. ونحن على يقين أن قراءتها لن تخلو من فائدة سواء بالنسبة للباحثين[2] أو الطلبة.

جواد بنيس

1- محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق 1987.
أنظر كذلك الترجمة التي قام بها صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة: دروس في الألسنية العامة، الدار العربية للكتاب 1985.

2- رغم أن كتب اللسانيات العربية تذكر سوسير ضمن موادها، فالمراجع المخصصة له قليلة قياساً إلى ماكُتب عنه في اللغات الأخرى. أنظر حنون مبارك: مدخل للسانيات سوسير، توبقال، 1987.

1 ـ سوسير والفلسفة

لا نشعر بأي حرج لتبرير حضور فردناند دو سوسير Ferdinand de saussure في بانوراما للفلاسفة الكبار(*). إذا كان المقصود فعلاً هو أن نحدد فيها أولئك الذين أثر فكرهم، ولو كان جد متخصص في البداية، في تاريخ العقل فينبغي أن نوجد ضمنها مكاناً لائقاً لرجل حوّل وأغنى دون شك، في وقتٍ لاحق، مسار مفكرين مثل ميرلو بونتي Merleau Ponty وليفي ستراوس Levi strauss وهنري لوفيفر Henri Lefevre ورولان بارث Roland Barthes ولاكان Lacan وميشيل فوكو Michel Foucault، ومن خلالهم كل العلوم الانسانية اليوم. لكن فضلاً عن هذا، فقد أعمل سوسير فكره في موضوع سمي فلسفة اللغة، منذ أفلاطون الى همبولدت Humboldt وحتى بعد ذلك.

قد لا يكون صحيحاً القول بأن اللسانيات الناشئة لسنوات 1820 انتزعت من الفلاسفة فلسفة اللغة هاته أو زاحمتهم فيها فقط: فالنحو المقارن ثم اللسانيات التاريخية ألحقا بهما عادة وكيفا بحسب حاجياتهما المفاهيم التي أدخلتها فلسفة اللغة إلى الفكر الغربي منذ أرسطو. وفيما يخص سوسير الذي أخضع هذه المفاهيم العتيقة إلى تغيير جذري، قد لا يكون ملائماً أن نتكلم عنه مثلما نتكلم عن رجل

---

* - صدر هذا الكتاب ضمن مجموعة « فلاسفة كل الازمان ». المترجم

جعل فلسفة اللغة مستحيلة بالمعنى التقليدي للكلمة. وبالفعل، إذا كان هذا هو ما حصل ظاهرياً - أوهو ما كان ينبغي أن يحصل- فالحقيقة أن الفكـر السوسيري، في جانبه الثوري جداً في عصره، ينهض على الأقل انطلاقاً من أرضية فلسفية بمقدار ما ينهض من أرضية لسانية.

إذا اعتبرنا يقيناً أن فكر دوركايم Durkheim وربما فكر تارد Tarde أيضاً، وإذا اعتبرنا كذلك أن التفكير حول نظرية العلامات (ذات التقليد الأرسطي والكوندياكي) هو ما أعطى إلى السوسيرية حيويتها، عندئذ يكون من الممكن أن نؤكد بعدل أن سوسير أعاد الاتصال العضوي والعميق بين اللسانيات والمنطق، في حين كانت اللسانيات التاريخية لسنوات 1880 تميل، بعيداً عن بعض الاقتباسات السطحية، إلى الانقطاع كليةً عن كل المشاكل الكبرى التي تطرحها اللغة باستثناء مشكل تطورها.

فباقتراحه تأسيس نظرية عامة للعلامات بكيفية علمية - السميولوجيا - يبين اللغوي الجنيفي الكبير بأنه باحثٌ له هاجس العمل المتبادل الاختصاص أو المتعدد الاختصاص، بالمعنى العصري للكلمتين، وذلك قبل الأوان. لكن ما ينبغي قوله على الفور هو أن الفلسفة تأخرت - وما تزال تتأخر دون شك - عن تملك هذا العطاء السوسيري الذي كان بإمكانه فعلاً أن يجدد على الأقل كل الطريقة التي يتحدث بها الفلاسفة عن اللغة.

ظهرت **محاضرات في اللسانيات العامة** سنة 1916، عند بايو Payot، بباريس (وليس بجنيف)؛ ورغم الحرب، فهي لم تمر دون أن ينتبه إليها

أحد كليةً. لكن في فرنسا على الأقل، انقضت ثلاثون سنة قبل أن تولي الفلسفة واللسانيات نفسها الاهتمام الذي كان يستحقه سوسير.

إن ليفي ستراوس وميرلو بونتي ثم بارث هم الذين نجحوا في النهاية، حوالي 1956، في جعله حقيقة موضع الإعتبار عند الحديث عن اللغة.

ويمكن أن نقدم معطى هاما حول تأخر الفلسفة (الفرنسية) في الإستفادة من الفكر السوسيري. ومع أننا لا نرغب في تضخيم دلالته، نفترض أنه مؤشر ذو قيمة مؤكدة: يتعلق الأمر بالحيز المخصص لسوسير في كتب الفلسفة على مستوى الباكالوريا. هذه الكتب تتضمن فصلاً عن اللغة هو بالنسبة للكثيرين، وربما لمدة زمنية طويلة، المعلومات المنسجمة الوحيدة في مادة اللسانيات العامة.

وقد أجري في سنة 1965 بحث يتعلق بالكتب السبعة المعروفة بما فيه الكفاية لكيفليي cuvillier وألكيي Alquié وبورلو bourloud ودفال Daval وغويلمان Guillemain وفرجيس vergez وويسمان Huisman وMeynard ومينار[2] فتبين أن الحيز المخصص لفلسفة اللغة ليس متفاوتا جداً فقط، من أربعة عشر سطراً (مينار) إلى خمس وعشرين صفحة (دفال وغويلمان)، بل إن المواضيع المطروقة جد مختلفة. فعلاوة على أنها تتمحور حول مشكلة علاقات اللغة بالفكر - وهو أمر

---

2 Colette longayrou, La linguistique dans les manuels de philosophie, Diplôme d'Etudes supérieurs, Aix-En- Provence, 1965.

عادي ـ فإن هذه الكتب تولي عناية غير متساوية إلى علاقات اللغة بالمجتمع وبعلاقات اللغة بالمحاكاة الصوتية وبالتطور وبلغة الحيوانات والحبسة [الأفازيا] وبأصل اللغة، بالخصوص.

إن المعلومات اللسانية حول هذه المشكلات هي نفسها متفاوتة للغاية وجد متفرقة ولها مرة أخرى دلالة أكثر فيما يخص سوسير: إذ يذكر كيفليي وايتني whitney وبيهلر Bühler وفاندرييس Vendryes، في حين يكتفي كل من ألكيي وفولكيي foulquié بذكر ماكس ميلر Max Müller. ولايضيف كل من فرجيس وويسمان الى هذا الأخير إلا ستيرن stern. أما مينار فلا يتحدث إلا عن غوسدورف Gusdorf الذي يذكر الجميع في كتابه **الكلام** ـ منهم فاندرييس ـ مستثنيا سوسير.

إن بورلو هو أول من أشار إلى سوسير في 1948 (مع فاندرييس و مايي وغرامون وبرينو Brunot وبيهلر). وفي 1951 أشار اليه كذلك كل من دفال وغويلمان مع مايي وفاندرييس وبرينو وبيهلر؛ وأخطر من ذلك أنه ذُكر مختلطا مع ماكس ميلر وزابروفسكي Zabrowvski .

لا يظهر سوسير إذن إلا في كتابين من سبعة كتب، ولا يُذكر نصياً إلا مرة واحدة. صحيح ان كتب الفلسفة ليست هي قسم الفلسفة.لكنها تعكسه مثل درس الأستاذ، وربما أكثر منه لاسيما في ذهن التلاميذ.

من الممكن أن نستنتج من اللوحة التي انتهينا من رسمها الانطباع التالي وهو أن عطاء سوسير في جانبه القطعي لم يُستوعب على

مستوى قسم الفلسفة، وأنه لم يوجه فيها، بعمق، إلى ما ينبغي قوله ومعرفته عن اللغة اليوم، بل العكس هو الصحيح.

تتجاور الإحالات البالية (ماكس ميلر)، وهي ذات الأسبقية في الغالب الأعم، مع أخرى أقل منها ،كما تتجاور الاقتباسات مع تصورات متناقضة لا تظهر عليها هذه الصفة. ولا يظهر اللسانيون في غالب الأحيان إلا من خلال أجزاء من فكرهم اللساني تكون في الغالب هامشية جداً. وأما ما هو عضوي في اللسانيات الحديثة بصفتها كلا جزؤه الكبير آتٍ من سوسير نفسه فهو غير مدرك بعد.

2 ـ حياة سوسير

هناك بيوغرافيات ليست لها فائدة، أو تكاد أن تكون كذلك، لإضاءة معنى عمل ما؛ فعن أنطون مايي Antoine Meillet مثلاً، تلميذ وصديق سوسير، وهو لساني فرنسي هيمن على جيله مدة نصف قرن، يمكن أن نكتفي بالقول بأنه كان ابن عدل. درس دراسة جيدة وتزوج ثم أصبح أستاذاً. درّس ونشر وكان موضع تشريف جامعي وعلمي لم يبحث عنه وان كان يستحقه.

على العكس من ذلك، كانت حياة سوسير هامة لأنها مشكلة في ذاتها، وزيادة على ذلك هي مشكلة ترتبط بالفهم الدقيق لعمله الذي تستطيع هذه الحياة وحدها، دون شك، تفسيره في العمق، ليس في محركاته التاريخية والاجتماعية والشخصية، بل في مضمونه وشكله بالذات[2].

ولد فرد ناند دو سوسير بجنيف يوم 26 نونبر 1857. وهو ينتمي لعائلة عريقة تنحدر عن مهاجرين فرنسيين هوغنوتيين[*] Huguenots. كان لهذه العائلة تقاليد راسخة في الثقافة العلمية وكانت تضم

---

2 -أحدث بحث وأكثره توثيقاً عن حياة سوسير هو لتوليو دي مورو: Notizie biografiche et critiche su F. de saussure في طبعته الإيطالية corso di linguistica generale، ص 283-334

*- الهوغنوت لقب يطلقه الكاثوليك بفرنسا على طائفة البروتستانت.

الطبيعيين والفيزيائيين والجغرافيين الذين يُكونون سلالة فخورة بنفسها، واعية باستمراريتها وراغبة في تخليدها دون شك. وقد تأثر سوسير بهذه البيئة.

أجرى سوسير دراسات كلاسيكية وتقليدية بجنيف حتى سن السابعة عشرة (1875). كانت السمة الأكيدة لهذه الدراسات هي بلا ريب إبرازها لميوله وكفاءاته اللسانية المبكرة.

يروي مايي الذي عرفه جيداً وكان واحداً من تلاميذه والذي عاشره خلال مرحلته الباريزية هذا الحدث: «أخبرني [سوسير] بأنه سبق له أن اكتشف، وهو يتعلم الإغريقية في الثانوي، بأن a في حالات مثل الإغريقية *tatos* لا يمكن أن تمثل شيئاً آخر سوى [فونيم] أنفي: هكذا تنبأ باكتشاف المصوتات الأنفية التي هي أحد أجمل الألقاب العلمية لـ م. بروغمان M.Brugmann» (**اللسانيات التاريخية واللسانيات العامة**، ج 2 ص 174).

ويؤكد هذه الشهادة سوسير نفسه في ذكرياته الخاصة بشبابه ودراساته (منشور في دفاتر ف.دوسوسير، رقم17، 1960)[3].

في 1875- 1876 بدأ دراساته الجامعية بنصفي سنة من الكيمياء، متبعاً هذا التقليد العائلي المفضِل للعلوم الدقيقة والطبيعية. وقد لاحظ إيمي بيكتي Aimé Pictet، وهو أحد زملائه في الدراسة، مايلي:

3- أنظر البيبليوغرافيا فيما يخص المراجع الكاملة ومختصرات العناوين.

«تابع سوسير عدداً كبيراً من الدروس العجيبة، قليلاً من كل شيء؛ وبنفس القدر تابع التيولوجيا والقانون والعلوم». كما اعترف سوسير في ذكرياته بأنه أضاع مجازفة سنة في متابعة دروس في العلوم "انسجاماً مع نوع من التقليد العائلي" (أنظر كذلك مقالاً عنوانه "ذكريات وشهادات" لليوبولد غوتيه Gautier Leopold الذي كان أحد تلاميذه بجنيف وواحداً ممن استعملت مدوناتهم لإعادة تشكيل م.ل.ع، يومية جنيف، فاتح مارس، 1963).

لم تدم هذه التجربة إلا سنة واحدة، فقد اتخذ سوسير منذ الدخول الجامعي لـ 1876 القرار الذي وجهه بكيفية نهائية (سيكون في سن التاسعة عشرة) فالتحق بلايبزيك leipsig حيث درس مدة أربعة أنصاف سنة (1876- 1877 و1877- 1878).

هو في العاصمة العالمية للسانيات الناشئة، وأستاذه كورتيوس Curtius كان متخصصاً في الإغريقية وأقبل على النحو المقارن ببطء، مثل كل المتخصصين في الاغريقية واللاتينية تقريباً. كان حول سوسير أساتذة شباب أو طلبة متقدمون، وقد كوّنوا في هذه السنة بالتحديد نواة ما سيصبح الحركة اللسانية للنحويين الجدد (junggrammatiker): منهم بروغمان Brugmannذو السبع والعشرين سنة وأوستوف Osthoff ذو الثلاثين سنة ولسكيان Leskien ذو الخمس والثلاثين.[4] وقد استطاع سوسير أن ينخرط، على قدم المساواة، في

4 cf. G. Mounin, Histoire de la linguistique des origines au XXème siècle,Paris,PUF, 1967, p 202-211

المناقاشات التي كانت تجري آنذاك، كما يروي ذلك مايي (كتاب مذكور، ج 2 ص 175).

وبالفعل منذ 13 مايو 1876، تم قبوله عضوا في جمعية اللسانيات الباريسية في سن الثامنة عشرة والنصف. ومنذ 13 يناير1877 قدم بها مداخلة عالمة طويلة كان لها على الفور شرف النشر (هذا لا يعني، من جهة أخرى، بأنه استقبل بحفاوة في مناقشات لا يبزيك: عكس ذلك، سيسيء الألمان فهمه منذ هذه اللحظة وسيتلقون أعماله الأولى ببرودة وسيساجله أوستوف بشراسة وجفاء).

بقي سوسير بلايبزيك حيث درس - إضافة الى السنسكريتية- الإيرانية والإيرلندية القديمة والسلافية القديمة والليتيانية مدة أربع سنوات. ولم يوقف إقامته إلا نصف سنة من الدراسات السنسكريتية بجامعة برلين (1878 - 1879). وفور وصوله - كان دون العشرين سنة - هيأ وقدم بحثه القيم حول [مصوتات] a الهندأوروبية إلى جمعية اللسانيات الباريسية (جلسة 21 يوليوز 1877). وفي السنة الموالية (دجنبر 1878) أتم هناك بحثه حول **النسق البدائي للمصوتات في اللغات الهند أوروبية** (لايبزيك، تيبنر،ص 302: بتاريخ 1874)، مما أكسبه شهرة سريعة. كان إذ ذاك قد بلغ سن الواحدة والعشرين. وفي السنة التالية، أتى إلى لايبزيك بأطروحته للدكتوراه **عن استعمال الإضافة المطلقة في السنسكريتية** (جنيف 1881).

وسيتبع هذه المرحلة الألمانية من حياة سوسير مرحلة باريسية أطول (1880 - 1891) بعد فاصل هام من الناحية العلمية هو سفر دراسي إلى ليتيانيا بين مارس وشتنبر 1880.

من المؤكد أن لا مبالاة الألمان تجاه أعماله كانت سبب القرار الذي اتخذه بالمجيء إلى باريس للاستقرار بها في دجنبر 1880. وهو تصرف يفسر إلى حد ما بخيبة الأمل التي أحس بها في لايبزيك. وقد تابع دروس ميشال بريال M. Bréal لمدة سنة في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا مع استمراره كذلك في دراسة السنسكريتية والإيرانية والفيلولوجيا اللاتينية. في هذا الإطار وجد مناخاً واستقبالاً مختلفين عما كان في لايبزيك، فمنذ الدخول [الجامعي] لـ 1881 تخلى بريال عن محاضرة النحو المقارن بمدرسة الدراسات العليا لفائدة سوسير الذي كان آنذاك دون الرابعة والعشرين من عمره.

ارتبط سوسير في باريس بكل من كان يعتبر حينئذٍ من اللسانيين الناشئين أو لسانيي المستقبل: تبدأ لائحة مستمعيه من دارميستيتير Darmesteter إلى س.ليفي S.Levi ومن بول باسي Paul Passy إلى غرامون ومايي.

في باريس، درّس سوسير بحماس النحو المقارن للجرمانية وللغات الكلاسيكية ولليتيانية على التوالي ثم أصبح كاتباً مساعداً لجمعية اللسانيات في 1882 وأشرف عملياً على نشر مذكرات الجمعية لكنه لم يؤلف كتباً ضخمة، بل كان ينشر في كل سنة تقريباً مدونات وبحوثاً أكثر أهمية، ولم ينقطع هذا النشاط إلا خلال سنة 1889 -1890

التي قضاها بجنيف لأسباب صحية، في هذه السنة ناب عنه مايي في دروسه بمدرسة الدراسات العليا.

تنتهي بيوغرافية سوسير بمرحلة جنيفية طويلة (1891- 1913). لقد غادر باريس وربما كان أحد الأسباب الأكثر احتمالاً لهذه المغادرة هو أنه أتيحت له إمكانية شغل كرسي رسمي بفرنسا (ولا شك أن بريال كان يفكر في أن يعطيه كرسيه بكوليج دوفرانس)، لكن وضعت الإدارة حواجزها التقليدية: إذ كان عليه الحصول على الجنسية الفرنسية، لكن سوسير رفض. في نفس الوقت أحدثت له جنيف كرسي أستاذ غير عادي في تاريخ ومقارنة اللغات الهند أوروبية ليُدرس السنسكريتية والنحو المقارن. وبذلك سيصبح أستاذا عاديا (أي رسمياً) في 1896. وسيدَرس بها أيضاً اللسانيات العامة في السنوات الاخيرة من حياته (في 1907، 1908-1909، 1910-1911).

أين المشاكل في حياة مثل هذه؟ إنها بالتأكيد ليست مشاكل ميول مناهضة [بفتح الهاء] لأن سوسير استطاع بعد سنة الشروع في دراساته الجامعية المفضلة بموافقة عائلته. وكما سنرى ذلك، لم تعاكسه ألبتة سُنةُ العائلة القوية ذات الثقافة الرياضية، بل إنها أغنت أحد مكونات أصالته التي كان على وعي تام بها بصفته لسانياً. هل يمكن تفسير ما طبع الإثنين وعشرين عاماً من حياته الجنيفية من صمت - ومركب عدم الرضا هذا وشبه الإخفاق - بالصدمة الألمانية؟ لأن سوسير عانى من سوء الفهم ومن مؤامرة الصمت والازدراء التي

كانت جواب لايبزيك على أعماله (وهي أعمال استعملت من جهة أخرى دون أن يشار إليها حتى حوالي 1900).

ورغم أنه يلمح، في رسالته أو في ***ذكرياته*** غير المنشورة خلال حياته، إلى بلاهة الألمان المخيفة، فإن هذا لم يؤثر أبداً في كتاباته العامة وفي محاضراته على الحياد الإيجابي الذي تعامل به مع أعمال النحويين الجدد. فضلاً عن ذلك، لم يظهر على سوسير خلال كل إقامته الباريسية التي تلت حياته بلايبزيك أي علامة من علامات الإحباط التي ستطبع مرحلته الجنيفية؛ وعلى العكس من ذلك، عمل ودرّس دون أن يداري قناعته ولا أن يذخر جهده.

المشكل الحقيقي اذن هو مشكل المرحلة الجنيفية. كان سوسير ينشر أقل فأقل. يتواصل مع أصدقائه أقل فأقل ويعتذر عن صمته الطويل جداً متحدثاً عن رهبة المراسلة عنده Epistolophobie (رسالة إلى مايي أعلن عنها في 27 نونبر 1900 ولم يتم إرسالها إلا في 28 أكتوبر 1902).

سيُعثر في أوراقه على أشياء كثيرة غير منتهية لا سيما مقال طويل في تكريم وفاة وايتني لا شك أنه كان معتنياً بكتابته، إذا احتكمنا إلى الثناء الذي يخص به اللساني الأمريكي في ***المحاضرات*** وفي ***مدوناته***. والحال أن المقال لم يكتمل أبداً، كما أن إسم سوسير لا يرد مع أسماء اللسانيين الذين اشتركوا في إحياء الذكرى من خلال رسالة شخصية.

أبدى سوسير مقاومة تجاه الدعوات الحبية لطلبته الذين استعجلوه لكي يعرض لهم أفكاره عن اللسانيات العامة ولم يتنازل إلا في 1907، بينما نعلم أنها كانت في عمق انشغالاته منذ 1894 وحتى قبل ذلك منذ المرحلة الباريسية (في الواقع، أهم الأفكار واضح اليوم من خلال شفافية الماضي، في بحث 1878).

وعوض تناول اللسانيات العامة، انهمك، حسب ما يبدو، بالتذاذ وتأنيب الضمير، في دراسات حول «مواضيع جديدة، غريبة عن اللسانيات في جزء منها مثل شعر نيبيلونغن Nibelungen(*) الذي ركز عليه ذهنه القوي والمتبصر والمنهجي؛ لكنه لم يصمم على الإدلاء بشيء من تفكيره الطويل» (مايي، كت.م.ج 2ص 182).

تسلى أيضاً، كما يقول، بأبحاث عن البورغونديين lesBurgondes (**)في البلاد الروماندية(***) وباشتقاقات أسماء أماكن جنيفية وبتحليل بعض المتواترات في الأشكال الشعرية، وهو ما يسميه «الأناغرامات» «anagrammmes»، ألخ.

وتصف رسالة إلى مايي، بتاريخ 4 يناير 1894، حالته الفكرية على الوجه الأكمل (أنظر غوديل Godel، **الأصول المخطوطة**، ص 31): «بداية مقالي عن التنغيم ستظهر. سيكمل المقال الثاني ما أريد أن

*- أسطورة جرمانية (المترجم).

** - شعب جرماني ذو أصل اسكندنافي (المترجم) .

***- يطلق لفظ روماند على جزء من سويسرا تستعمل فيه اللغة الفرنسية (المترجم).

أقوله عن التنغيم [..] لكنني جد متقزز من كل هذا ومن الصعوبة التي نجدها عامة في كتابة مجرد سطرين يكون حولهما الإجماع بصدد ظواهر اللغة. منشغلا بالخصوص منذ زمن طويل بالتصنيف المنطقي لهذه الظواهر وبتصنيف وجهات النظر التي نتناولها من خلالها، أرى أكثر فأكثر في آنٍ واحد ضخامة العمل المطلوب لنبين للساني ما يفعله وذلك برد كل عملية إلى صنفها الممكن، وفي نفس الوقت التنوع الكبير بما فيه الكفاية [التفاهة[5]] لكل ما يمكن أن نفعله أخيراً في اللسانيات.

«في نهاية التحليل فقط، ما يبقى له فائدة بالنسبة إلي هو هذا الجانب الإثنوغرافي تقريباً، الجانب الأصيل للسان ما، ذلك الذي يجعله يختلف عن كل الألسنة بصفته منتمياً إلى شعب معين له أصول معينة: وبالتحديد، لم تعد عندي لذة القدرة على القيام بهذه الدراسة دون أفكار مسبقة أو التمتع بالحدث الخاص المرتبط بوسط خاص.

«بلاهة الإصطلاحات الشائعة هاته وضرورة إصلاحها ومن أجل هذا إظهار ما هو نوع الأشياء الذي يمثله اللسان بصفة عامة، كل ذلك يفسد علي باستمرار لذتي التاريخية، مع أنه ليس لي أمنية أغلى من أن لا أكون مجبراً على الانشغال باللسان عامة.

«سينتهي هذا رغماً عني بكتاب سأشرح فيه، دون حماس، لماذا لا يوجد لفظ واحد مستعمل في اللسانيات له معنى ما بالنسبة إلي. إني

---

5 ـ تصحيح بنفينست بحسب المخطوط.

أعترف بأنه بعد هذا الكتاب فقط، سأستطيع إتمام عملي من النقطة التي تركته فيها».

فسر مايي شبه الصمت هذا لسوسير، بعد 1894، بنوع من التدقيق المَرضي تقريباً، بهاجس الكمال المبالغ فيه: وبالخوف من أن «يرى كل شيء قد فسد [..] بإشارات جزئية لا تتعلق إلا ببعض تفاصيل الموضوع، ومن شأنها أن تظهر الكل بصورة خاطئة» (**كت.م.** ج 2، ص 179 و182).

يعتقد دي مورو De Mauro (ص 314- 319 *corso*) بأن الحاجز الذي اعترض سوسير هو أكثر صعوبة من ذاك الذي تصفه الرسالة إلى مايي. ولا يمكن تفسير الصمت التدريجي لسوسير بعد النضج المثمر للسنوات الأولى بمشكلة مزاج ولا بتحولات جامعية أو علمية خارجية، بل بالوعي نفسه الذي كان لسوسير حول عظمة المهمة التي تكلف بها: تأسيس لسانيات عامة (تلك التي تتطور اليوم) لم يكن أحد مهيئاً لها حينئذ حيث لم يتبعه فيها أصدقاؤه وتلاميذه الأقربون جداً، وحتى مايي نفسه، ليس ذلك بسبب خلاف أو عداء، بل لأنهم لم يفهموا، بالمعنى الحرفي للكلمة، معنى المبادرة. إنها فاجعة العزلة العلمية التي انتبه إليها أيضاً دون أن يفهمها كل من عاينها. وكان التعويض الوحيد لسوسير قبل وفاته هو الكتاب التكريمي الذي أهداه اليه زملاؤه وطلبته في يوليوز 1908.

هذا الصمت العنيد وهذا النفور من النشر هما سبب مشكلة سوسيرية أخيرة: تلك التي تطرحها **محاضرات في اللسانيات العامة.**

هذا أيضاً مشروع لم يوصله سوسير إلى نهايته («سينتهي هذا، رغما عني، كما كان يقول إلى مايي، بكتاب سأشرح فيه دون حماس، إلخ»).

هذا الكتاب الذي لم يؤلفه، كتبه لغويان جنيفيان: شارل بالي Charles Bally وألبير سيشهاي Albert Séchehaye اللذان كانا مستمعين مواظبين، وذلك بالاعتماد على مدوناتهما الدراسية ومدونات خمسة مستمعين آخرين ومدونات شخصية تركها سوسير. حظي هذا الكتاب بالنجاح الذي نعرفه. وسؤالنا اليوم غايته معرفة إلى أي حد يمثل [الكتاب] فكر سوسير.

وبسبب الهاجس البيداغوجي والمزاج المنطقي، فالذي أراد الناشران فعله للفكر السوسيري هو« إعادة تشكيل وتلخيص [..] إعادة خلق بقدر ما هي عسيرة كان عليها أن تكون موضوعية بكيفية تامة [ ] هادفة إلى رؤية كل فكرة للأستاذ «بشكلها النهائي» (**مدخل المحاضرات**، ص 9).

نعلم اليوم جزئياً، خصوصاً بفضل روبير غوديل، Robert Godel كيف أن هذا العمل حجّر، عند سوسير، ماكان متقلبا وثبّت ما كان مرسوما وأتم ما كان يبدو ناقصا. وكما سنرى ذلك، إذا نحن تصفحنا **الأصول المخطوطة** لغوديل وما استنتجه منها مورو من تحاليل وما بدأ يظهر من الطبعة النقدية **للمحاضرات** التي أنجزها رودلف انغلر Rodlf Engler، فاننا سنتبين أن قراءة سوسير أصبحت هي الأخرى مشكلة منذ 1957.

3- سوسير و زمنه

قبل تحليل مكمن أصالة سوسير، من الأفيد أن نرى كيف أنه كذلك ابن عصره. وفي هذا الصدد يقع الإجماع حول نقطتين على الأقل. الأولى هي ما نسميه النـزعة السوسيولوجية لسوسير (sociologisme). وهذه السوسيولوجية محددة دائماً بالمقارنة مع دوركايم Durkheim. هل حدث اتصال ومعرفة مباشرة بين العملين أو حتى بين الرجلين؟

نسجل بأنهما متعاصران تقريباً بدقة: 1857 - 1913 و1858. 1917. لكن دوركايم نضج متأخراً عن سوسير، فهو لم يُدرس في كلية بوردو إلا سنة 1897. وأول عمل له كان في 1893 (**تقسيم العمل الإجتماعي**). أما الذي أثار الإنتباه إليه، أي ***قواعد المنهج السوسيولوجي***، فقد ظهر في 1895. في هذه الفترة كان سوسير قد دخل إلى جنيف ولم يأت دوركايم إلى السوربون، للتعويض، إلا ابتداءً من 1902. فضلاً عن ذلك، ينبغي أن نسجل بأن الإشارات إلى اللغة بصفتها ظاهرة اجتماعية هي نادرة في كتاب **القواعد**.

ولا شيء من ذلك في الفصل الأول وهو الرئيسي المعنون بـ: «ما هي الظاهرة الاجتماعية»، باستثناء تلميح، لكنه واضح، إلى «نسق العلامات الذي أستعمله للتعبير عن فكري» (ص 4). ونجد في مدخل

الطبعة الثانية اللاحقة على 1906 (ص 19) إشارة ثانوية وسط سرد تعدادي (موضوعات أسطورية، أساطير، تقاليد شعبية، لغات).

وفي سنة 1903، في المقال - البرنامج **للمجلة الفلسفية** (السوسيولوجيا والعلوم الإجتماعية) التي كانت تنادي بإدماج كل العلوم الإجتماعية بصفتها فروعاً لعلم الإجتماع، سيشير دوركايم إلى إلحاق اللغة بعلم الاجتماع باعتبارها مؤسسة اجتماعية. ومع ذلك، لا شيء من كل هذا يقنع بكيفية مباشرة فيما يتعلق بتكون النـزعة السوسيولوجية السوسيرية.

يمكن أن يكون تأثير دوركايم قد وصله عبر مايي، تلميذه ومراسله المفضل. وبالفعل يعلن مايي بوضوح أنه ذو ميول دوركايمية. وإذا كان لا يسمي مؤسس السوسيولوجيا الفرنسية سنة 1906، في المحاضرة الافتتاحية لكوليج دوفرانس، فإن فكره حاضر فيها كلها.

وقد قدم مايي مقالاً طويلاً في نفس السنة، في ***السنة السوسيولوجية*** التي انتهى من تأسيسها دوكايم حول: **كيف تتبدل معاني *الكلمات*** (اللسانيات ج 1، ص 230 -271) له قيمة عرض نظري ومنهجي فيما يخص روابط السوسيولوجيا باللسانيات، وفيه يتبوأ دوركايم مكانة شرفية. هكذا، كتب مايي: «تدخل اللغة بالضبط في التحديد الذي اقترحه دوركايم؛ توجد لغة ما باستقلال عن كل الأفراد الذين يتكلمونها. ومع أن ليس لها أي وجود خارج مجموع هؤلاء الأفراد فإنها مع ذلك بفعل عموميتها خارجة عن كل واحد منهم، وما يبين

ذلك هو أنه ليس في مقدور أي منهم أن يغيرها [...]. تظهر في اللغة خاصيتا الخروج عن الفرد والإلزام اللتان يحدد من خلالهما دوركايم الظاهرة الإجتماعية بكل بداهة» (ن.م. ص 230). لقد عرف إذن سوسير هذه الأطروحات الدوركايمية الرائجة منذ 1893.

في الحقيقة ينبغي أن لا ننسى مع ذلك بأن النزعة السوسيولوجية كانت رائجة في هذه الفترة، و أن لا ننسى أيضاً بأنه كانت تروج في اللسانيات على الأقل منذ وايتني whitney نزعة سوسيولوجية أقل تشكلاً بصفتها كذلك، ولكنها مرتبطة بكيفية عضوية باللسانيات. ومن المؤكد أن سوسير اطلع عليها منذ إقامته بلايبزيك؛ وقد أعطى ليسيكيان leiskien منذ 1876 ترجمة ألمانية لـ *Life and growth of language* الصادر في لندن سنة 1875 (أنظر دي مورو، ص *corso*، 296-301).[6]

من جهة أخرى ودون الابتعاد عن جنيف، التقى سوسير أيضاً بالفكر الدوركايمي عند قيدومه الخاص أدريان نافيل Adrien Naville الذي كان قد قدم سنة 1901 **تصنيفاً جديداً للعلوم** خصص فيه مكاناً للسميولوجيا بالإستناد صراحة إلى سوسير. وقد كتب نافيل: «الإلزام هو شرط آخر للحياة الإجتماعية [...] تطور اللغة نفسه يفترض الإلزام» (أنظر دي مورو، كتاب مذكور ص 319).

في نهاية المطاف أين تكمن هذه النزعة السوسيولوجية لسوسير؟

---

6 ـ أنظر أيضاً مونان، **تاريخ اللسانيات**، ص 220-221

من جهة أولى، يؤكد سوسير بكيفية متكررة بأن «اللغة ظاهرة اجتماعية» (*المحاضرات* ص 21) وبأن لها «جانباً اجتماعياً» (ن.م. ص 24). يتحدث عن «الظاهرة الإجتماعية للسان» (ص 29)، وعن «الرابط الإجتماعي الذي يمثله اللسان» (ص 30) وعن «القوى الإجتماعية المؤثرة في اللسان» (ص 113) الذي لا يوجد إلا بموجب ضرب من عقد بين «أفراد المجموعة..» (ص 31).

اللسان «منتوج القوى الإجتماعية» (ص 108)؛ «إنه خلافاً للمظاهر لا يوجد في أية لحظة خارج الظاهرة الإجتماعية» (ص 112)، و«طبيعته الإجتماعية هي واحدة من خصائصه الداخلية» (ص 112): هذا بالألفاظ ما يمكن أن نجده من صبغة دوركايمية، خصوصاً ما يتعلق بالإستشهاد ما قبل الأخير. لكنه يقرر بألفاظ وايتنية بأن «اللسان مؤسسة اجتماعية» (ص 26) (يستعمل دوركايم في *القواعد* لفظ مؤسسة باعتدال ومع بعض التحفظ،) (ص 22).

من جهة ثانية يلح سوسير في آنٍ واحد على أن «اللسان ليس مؤسسة اجتماعية متشابهة في كل نقطة مع [المؤسسات] الأخرى (ص 26). إن «اللسان مؤسسة اجتماعية لكنها تتميز بسمات متعددة عن باقي المؤسسات السياسية والقانونية الخ » (ص 33). إنه «-وهذا الاعتبار يسبق كل الاعتبارات الأخرى- قضية الجميع في كل لحظة [...] وفيما يخص هذه النقطة لا يمكن إقامة أية مقارنة بينه وبين المؤسسات الأخرى» (ص 107).

بالنسبة لسوسير، يكمن الفرق الأساسي بين اللسان والمؤسسات الاجتماعية الأخرى في الطابع الاعتباطي للعلامات (ص 106) بينما «تتأسس باقي المؤسسات الإنسانية كلها -العادات والقوانين الخ.. - على الروابط الطبيعية للأشياء بدرجات متفاوتة (ص 110). بواسطة هاجس التميز هذا، تبتعد إذن النـزعة السوسيولوجية لسوسير عن نزعة معاصريه اللسانيين بالخصوص. لكن، على العموم، يمكن الإعتقاد بأن هذه النـزعة السوسيولوجية هي نزعة العصر سواء أكان مصدرها وايتني أودوركايم، حيث تجد صداها في ***المحاضرات*** مرة أخرى على الأقل عندما يكتب سوسير بأن «كل قانون اجتماعي له خاصيتان أساسيتان: إنه أمري وعام» (ص 130). لكن في هذا الموضع نفسه، عندما يطرح السؤال «هل تستجيب قوانين اللسان لهذا التعريف؟» يجيب بكيفية غير قاطعة، مع أنه يقبل بأن «القانون السانكروني [...] يُفرض على الأفراد من خلال الإلزام الذي يمثله الاستعمال الجماعي» ص (134-130).

وفيما يخص نقطة أخرى كذلك، حول ما نسميه النـزعة النفسية لسوسير (*psychologisme*)، نلاحظ إجماعاً واسعاً. إنه هنا أيضاً ابن عصره، عصر تبوأ فيه علم النفس مكانة علم اجتماعي تام، بل علم اجتماعي رائد (يتعارض مع ادعاءات الاستقلالية للسوسيولوجيا الناشئة). هذا الدور الذي تؤديه العلوم بالتناوب الواحد تجاه الآخر بكفاءة إلى حد ما، حيث يصبح العلم الواحد مصدراً للنماذج النظرية، لاحظته اللسانيات وقبلت به في مصتف اللسانيات الذي يقنن الإنجازات

النحوية الجديدة: *Prinzipien der sprachgeschichte* لهرمان بول Hermann Paul (1880)[1].

أين تكمن النـزعة النفسية لسوسير؟ أوّلاً في الهدوء الذي جعل من سوسير رجلاً ذا «نزعة ذهنية» (حسب بلومفيلد) على غرار كل معاصريه أو جلهم، بمعنى أنه متيقن من معرفة ما يجري في ذهن الإنسان عندما يفكر بواسطة الفلسفة والاستبطان.

يفسرسوسير إذن ظواهر اللغة بظواهر الفكر بصفتها شيئاً محسوماً فيه؛ يقرر على سبيل المثال بأن «العلامة اللسانية لا تجمع شيئاً باسم، بل [تجمع] مفهوماً بصورة سمعية» (ص 98)، اي بواسطة مفهومين لا قدرة للساني عليهما وحيث يعرف على الأرجح أشياء أقل بكثير مما يعرفه عن اللغة. يقول: «يثير مفهوم ما صورة سمعية مطابقة في الذهن» (ص 28). لهذا يعلن أيضاً «بأن كل شيء، في الحقيقة، سيكولوجي في اللسان» (ص 21) وبأن «العلامة اللسانية، إذن، كيان سيكولوجي» (ص 99).

إلى جانب هذه النـزعة الذهنية للعصر، تعبر النـزعة السيكولوجية السوسيرية عن نفسها من خلال أطروحة أخرى كذلك، تلك التي بمقتضاها «يكون للغة جانب فردي (وجانب اجتماعي؛ ولا يمكن أن نتصور الواحد دون الآخر)» (ص 21). هذا التركيز على دور الفرد في «تنفيذ» اللغة يقوده إلى أولى أطروحاته الخاصة الكبرى: معارضة ظواهر الكلام بظواهر اللسان («تتضمن دراسة اللغة إذن قسمين:

---

١ - أنظر كذلك مونان، تاريخ... ص 220-221

أحدهما أساسي وموضوعه اللسان الذي هو اجتماعي في جوهره ومستقل عن الفرد، والآخر ثانوي موضوعه الجانب الفردي للغة أي الكلام بما فيه التصويت: وهو سيكولوجي- فيزيائي psychophysique» (ص 37).

بالنسبة لبعض الشراح السوسيريين، قد تكون هذه الثنائية التي تعارض الكلام باللسان أتت عن تارد Tarde، خصوصاً في ***قوانين التقليد*** (1890)، هذا دون احتساب السابقين الأبعدين الذين نجدهم دائماً وراء كل فكرة جديدة (أنظر المناقشة عند دي مورو، (ص 350-corso،349). أما الذي قدم معطيات المشكلة فهو بالخصوص دوروشيفسكي Doroszewski عندما كتب سنة 1933: «أعرف من مصدر موثوق به أن فردناند دو سوسير كان يتابع باهتمام بالغ النقاش الفلسفي الدائر بين دوركايم وتارد» (دوركايم وف. دوسوسير في مجلة علم النفس، 1933، ص 82-91).

وفي سنة 1957، خلال المؤتمر الدولي الثامن للسانيين، ذكر دوروشيفسكي هذا المصدر بالاسم: لوي كاي Louis Caille، أحد المستمعين الذي ستستعمل مدونته في تحرير محاضرات في اللسانيات العامة والذي عرفه به سيشيهاي سنة 1931 في جنيف على إثر المؤتمر الدولي الثاني للسانيين (أنظر أشغال المؤتمر الثامن م. د.ل، أوسلو، 1938، ص 544، الإحالة 3).

إذن قد يكون سوسير مديناً إلى تارد - وهو الذي كان يؤكد على الدور المتميز للفرد في السيكولوجيا الإجتماعية - بالأهمية الخاصة

التي يعطيها لظواهر الكلام. ومن بين القرائن الكفيلة جداً بإقناعنا بهذا التأثير- وغوديل له الحق في التشديد على ذلك - الدور الذي يسنده إلى مفهوم القيمة في علم الدلالة والحاحه (لتوضيح هذا المفهوم) على استعمال تشبيهات ذات أصل اقتصادي، أي هذه الأشكال التبادلية التي وصفها تارد سنة 1902 في ***علم النفس الاقتصادي*** (أنظر غوديل، ***الأصول***، ص 282).

بالنسبة لنقطة ثالثة، يدين تكوين سوسير لسابقيه ـ أكثر منه لزمنه ـ بشيء أساسي لا يدركه المعلقون أبداً بما فيه الكفاية وهو ما قد يمكن تسميته بميله الواضح لإدخال الرياضيات إلى اللسانيات. إن ميلكا إيفيتش Milka Ivic هي الوحيدة التي تتأسف «كما وضحه غوديل بكفاءة على أن تحمس[؟] سوسير لمقاربة رياضية في تناول مشاكل اللغة لم يتم تمثيلها بصورة تامة [في تحرير ***المحاضرات***] (***الاتجاهات اللسانية***) لاهاي، موتون، 1965، ص 125.

وبالفعل لا تحتوي المحاضرات إلا على تلميحات مجازية نادرة إلى الرياضيات (ص 79، 142)، باستثناء ما يتعلق بتقديم بعض الظواهر اللسانية بواسطة «قاعدة المتناسبة الرابعة» (ص 222، 224، 225، 226، 229 و231)

لكن توجد في ***الأصول*** تعابير جلية بهذا الخصوص. يقول سوسير في رسالة إلى ليوبولد غوتيي Léopold Gautier سنة 1911: «تظهر لي اللسانيات الآن كأنها نسق هندسي» (***الأصول***، ص 30) أو في قول كذلك: «لا توجد ولا يمكن أن توجد تعابير

بسيطة للمفاهيم اللسانية. إما أن يكون التعبير جبرياً algébrique أو لا يكون» (ص 49)؛ أو في قوله: «كميات اللغة وعلاقاتها قابلة أن يعبر عنها بانتظام، في طبيعتها الأساسية، بواسطة قواعد رياضية» (ن.م.ص44). في حين لا نجد في المحاضرات إلا صيغة تقريبية مثل قوله: «اللسان هو على وجه التقريب جبر له أطراف مركبة ليس إلا» (ص 168). لا يتعلق الأمر هنا باستعارات، بل بإجراءات حقيقية واستدلالات مصوغة بكيفية رياضية.

المهم هو أن طريقة الرؤية هاته والمنهج الذي ينبثق عنها موجودان مسبقاً في بحث 1878 حيث أثبت سوسير بكيفية جبرية الوجود الضروري لفونيم هند - أوروبي لا يعرفه (والذي يمثله بـA*)، من خلال تحليل الروابط التي من المفترض أن يكون أقامها هذا الفونيم مع الفوينمات الأخرى المحيطة به، بغية توضيح حالة لاحقة للسان.

ومثلما اكتشف غال Gall متأخراً الكوكب الذي قام بحسابه لوفيريي Le verrier[*] «اكتشف هاندريكسون Hendriksen سنة 1941 في اللغة الحثية [فونيما] حنجرياً كان يحتل بالضبط المواقع التي ربطها سوسير سنة 1878 بـ[فونيم] A* الغامض» (أنظر م. إيفيتش،

(*)- يتعلق الأمر بكوكب نيبتون Neptune الذي توقع وجوده الفرنسي لوفيريي واكتشفه بعد ذلك الألماني غال (المترجم).

الإتجاهات، ص 124). ومنذ ***البحث*** نجد أيضاً العرض الشهير بحسب مبدأ المتناسبة الرابعة (أنظر ص 240). وقد كان هذا الذوق الرياضي غريباً على لسانيات العصر. هكذا نفهم أن الألمان مثلهم مثل مايي أعجبوا في **البحث** بالنتائج أو تحديداً بالمنهج بكيفية سطحية أكثر من المبدأ نفسه.

وعلى سبيل المثال، فإن مايي سنة 1913 -في معرض حديثه عن ظواهر ليس لها خارجياً أي علاقة مع سوسير- يكرر ثلاث مرات في نفس الصفحة (بخصوص مؤلفين لا يسميهم ينتمون على الأرجح إلى القرن 18) هذا الرأيَ الشائع آنذاك القائل بأن اللسانيات ليست هي الرياضيات: «لا مجال لمحاولة أن نحصي بواسطة حساب الاحتمالات الحظوظ التي يتوفر عليها مفهوم معين حتى يعبُر عنه في تركيب معين». ثم يستحضر أيضاً الشروط المتعددة للظواهر الدلالية التي «تستعصي كثيراً على التقدير الكمي حتى نستطيع معها استعمال حساب ما». ويختتم قائلا بـ «عدم االلجوء الى الحساب الذي لا مبرر له هنا...» (**اللسانيات**..ج 1، ص22). وحتى لو كان على صواب في النقطة المحدودة التي يناقشها، فإن إلحاحه ذو دلالة فيما يخص الأحكام المسبقة للعصر.

مهما يمكن من أمر، فتحمس سوسير للرياضيات الذي اعتبر عند أكثر المعجبين به على أنه غرابة ذات صبغة شخصية صرفة، يمكن تفسيره ببساطة بواسطة تكوينه الأول العائلي والجامعي معاً. غير أنه ينبغي تأمل بعض المؤشرات فيما يتعلق بأصل هذا المكون الفكري

عند سوسير، أو على الأقل فيما يتعلق بتعزيزه. ليس قليل الفائدة مطلقاً أن نلاحظ بأنه، منذ سن الخامسة عشرة، (1872) شرع تلميذ الثانوي الشاب في تحرير «نسق عام للغة» سماه *دراسة عن الألسنة* ودفعه إلى بيكتي Pictet ليقرأه. والمثير فيما يحكيه سوسير نفسه في *ذكرياته* عن هذا النسق هو أن الأمر يتعلق بنسخ نموذجي للبناءات التي أعدها القرن 18 دون كلل عن أصل اللغة، حيث تقترن الأصوات الدنيا (r،k الخ)، بسبب طبيعتها نفسها، بالتعبير هنا عن بعض المفاهيم مثل القدرة والعنف والطغيان مثلاً.

تكمن فائدة هذه القصة في كونها تظهر سوسير شاباً يقرأ الفلسفات اللسانية للقرن الثامن عشر عن كثب. وعندما نتكلم عن سوسير لا نفكر بما فيه الكفاية عادة في أن تسرب النحو المقارن لبوب *Bopp* وللألمان إلى فرنسا (الذي حطم فلسفات اللغة السابقة) حدث ببطء شديد، إذ لم يحصل ذلك عملياً قبل 1850-1860؛ كما أن الفرنسيين سيبقون في آنٍ واحد حذرين جداً إزاء الإنجازات الجرمانية الكبرى ومقتنعين لفترة طويلة بوجود شيء يمكن إنقاذه في التعليم اللساني للقرن 18.

هنا كان موقف ميشال بريال نموذجيا، وهو صاحب أول كرسي للنحو المقارن أنشئ ابتداء من 1865 بكوليج دو فرانس. والحال أن سوسير، وهذا ما ننساه بسرعة، كان أيضاً لمدة سنة مستمعاً لبريال (1880-1881)، وكان بريال واعياً جداً في تعليمه بأنه يمثل في آنٍ واحد سُنة بوب وسنة كوندياك Condillac الذي يذكره ويتأسف على كونه

نسي كثيراً[8]. ولهذا السبب اعتبر دائماً كتاب *دراسة في الدلالة*، الذي تهيأت عناصره خلال سنوات 1880-1890، على أنه هامشي في لسانيات العصر. يتحدث بريال دائماً عن **العلامة**، على الأقل مثلما يتحدث عن الكلمة ويستند إلى النظرية المنطقية القديمة الخاصة بالطابع الاتفاقي للعلامة اللسانية على غرار مفكري العصر الكلاسيكي. ويستحيل أن لا يكون سوسير قد تأثر بهذا التعليم الذي يساير ميوله في معالجة اللسانيات بصفتها مشاكل منطقية رياضية. إنه يعلم بما يدين به في هذا الصدد إلى المفكرين الكلاسيكيين ويقوله في *المحاضرات* بخصوص نحو بورروريال Port Royal (ص 118) كما يقوله أيضاً في مدوناته: «لعل بعض الفلاسفة والمناطقة وعلماء نفس استطاعوا أن يعلمونا ما هو العَقد الأساسي بين الفكرة والرمز» (*الأصول*، ص 45). ورغم أن المناطقة موجودون هنا بتحفظ، لأن سوسير يريد تجاوزهم، فهو يعلم بأنه يأخذ عنهم نقطة انطلاقه. وهذه القرابة الفكرية تدعمه بالضرورة في ميله نحو معالجة رياضية للظواهر اللسانية لأننا نجد هذا الميل عندهم، عند لايبنز Leibniz وعند آخرين كثيرين. فعندهم يتعلق الأمر دائماً بلغة الحسابات وبجبر الفكر وبلغات تشتغل كأنها حسابات. سواء كانت أشكالاً وهمية أو بناءات دقيقة جداً، فالمسألة تتعلق دائماً بالالتقاء المأمول أو المحلوم به بين اللسانيات والمنطق والرياضيات.

---

8 - أنظر مونان:

Une illusion d'optique en histoire de la linguistique, dans lesTravaux de l'Institut de linguistique de Paris, t IV, 1959 .

4 – السميولوجيا

رغم أن كلمتي سميولوجيا (sémiologie) أو سمييولوجيا (séméiologie) ظهرتا في مكان آخر عند الأطباء والعسكريين منذ زمن طويل، عند باكون Bacon من خلال إشارة واحدة وعند لوك Locke (أو عند بيرس Peirce - الذي لم يعرفه سوسير- في شكل سميوتيك semiotics)، فإن سوسير هو الذي وقع عمليا شهادة ميلاد هذا المفهوم العلمي.

لقد كتب سوسير: «يمكن أن نتصور علماً يدرس حياة العلامات في الحياة الإجتماعية: سيُكون جزء من علم النفس الإجتماعي، وبالتالي جزء من علم النفس العام (***المحاضرات***.ص33) «سنسميه سميولوجيا [من الاغريقية سمييون sémeîon،"علامة"]»(ن.م). وفي مدوناته يعطيه مرة واحدة تسمية غير فصيحة وجد معبرة: السينيولوجيا signologie (الأصول، ص 52) ويحدد موضوعه هكذا: «سيعلمنا أين تكمن العلامات وما هي القوانين التي تحكمها» (***المحاضرات***، ص 33).

بالنسبة إلى سوسير، «ليست اللسانيات سوى جزء من هذا العلم العام» (ن.م)؛ «اللسان ظاهرة سميولوجية[من بين ظواهر أخرى] (ص 112)، لكنه يحظى عند عنده بالامتياز لأنه «أهم هذه الأنساق [السميولوجية]» (ص 33)، بل «يمكن أن يصبح النموذج العام للسميولوجيا» (ص 101).

إضافة إلى اللسان، ستدرس هذه الأخيرة إذن أنساقاً أخرى للعلامات، يُعين من بينها سوسير على وجه الخصوص الكتابة وأبجدية الصم - البكم والطقوس الرمزية وأشكال التأدب والإشارات البحرية.الخ (ص 33).

أشكال التأدب تعاود الظهور في ***المحاضرات*** (ص 101) وفي ***الأصول*** (ص 124). وفي موضع آخر، يطالب أيضاً بـ«اعتبار الطقوس والتقاليد، ألخ... علامات» (***المحاضرات***، ص35)، وكذلك الشأن بالنسبة للبانتوميم (ص 101) والإشارات البحرية المرئية (ص 103). يتكلم عن التقليعة (الموضة) ثلاث مرات (ص 281، 209،110) مُبيناً في المرة الأولى من أية ناحية هي ليست نسقاً مطلق الاعتباطية. (هنا تمكن بارث من اكتشاف أحد مواضيعه الفكرية المفضلة، أو أحس بالتأييد في مهمته؛ وكذلك من خلال مقطع سوسيري واضح لتروبتسكوي في كتابه ***مبادئ الفونولوجيا*** حول التحليل «الفونولوجي» للباس الإتنوغرافي).

ومع أنه لم يطور كثيراً تصوراته عن السميولوجيا، ألح سوسير على بعض النقط الأصيلة. أولا، لا يكتفي، مثل أنصار اللسانيات السوسيولوجية لعصره، بأن يردد كيف أن المؤسسات السميولوجية (واللسانية) لها طابع مؤسسات اجتماعية (الخروج عن الفرد والإلزام)، بل يريد أيضاً أن يميزها عنها وأن يتم البحث عن السمات الخاصة للأنساق السميولوجية. يقول: «عندما نلاحظ بأن العلامة ينبغي أن تدرس اجتماعياً، لا نبقي إلا على سمات اللسان التي تربطه

بالمؤسسات الأخرى [...] بهذه الطريقة نخطئ الهدف بإهمال الخصائص التي لا تنتمي إلا إلى الأنساق السميولوجية عامة والى اللسان خاصة» (**المحاضرات**، ص34).

ودون أن يكون مضادا لدوركايم، يبين المقطع السابق بوضوح من أية ناحية يحاول سوسير تجاوز القواعد الدوركامية في اللسانيات. عندما يقول بأن «المشكل اللساني - في نظره - هو قبل كل شيء سميولوجي» (ص 34) فهذا هو معنى صيغته: ينبغي البحث عن خصوصية المؤسسات السميولوجية وليس فقط عن خصائصها العامة كمؤسسات اجتماعية.

يتردد سوسير نفسه في البحث عن هذه الخصوصية. تارة ينظر إلى السميولوجيا على أساس أن «موضوعها الرئيسي[...] هو مجموع الأنساق المؤسسة على اعتباطية العلامة» (ص 100)، وهذا [شيء]مقيد. لكنه يضيف على التو تقريباً بأنه «عندما تتأسس السميولوجيا، عليها أن تتساءل هل أنماط التعبير المعتمِدة على علامات طبيعية تماماً [غير اعتباطية: رموز]- مثل البانتوميم - هي من اختصاصها» (ص 101).

ويبين مقطع ***الأصول*** الخاص بالتأدب بأنه أدرك جيداً الأمر التالي، وهو أن الانتقال من الرمزية الطبيعية إلى العلامة الاعتباطية يمكن أن يتم عبر تدرج غير محسوس. ويسجل أيضاً: «السميولوجيا: مجالها، مهامها (مثلاً أن تميز درجات في الطابع الاعتباطي لمختلف الأنساق)» (***الأصول***، ص67). ثم يترك المشكلة دون حل فيختتم بهذا القول: «إذا

افترضنا أنها ستحتضنهم..». وتارة أخرى ينظر إلى خصوصية السيميولوجيا، بكيفية مغايرة، في الطابع الاختلافي المحض لوحداتها بقوله: «إن ما يكوّن علامة ما في اللسان، كما في أي نسق سميولوجي، هوما تتميز به. الاختلاف هو الذي يشكل الخاصية مثلما يشكل القيمة والوحدة» (**المحاضرات** ص168). هنا يتجلى الطابع المفتوح للتفكير السوسيري بنفس القدر، أو أكثر مما يتجلى به الطابع غير المنتهي لإعداد هذا التفكير الذي لم يفلح الناشران كما نرى في إخفائه وهم يبحثان عن «الشكل النهائي» الذي يعطيانه إياه.

خلافاً لما حصل بالنسبة لباقي الأطروحات السوسيرية، لم يكن مفهومه للسيميولوجيا موضوع مناقشة. وهذا يفسّر دون شك بالصبغة الهامشية التي اكتستها هذه التأملات في الأوساط اللسانية إلى حدود 1950 عندما أعادت العلوم الاجتماعية اكتشاف قيمتها المنشطة.

في الحقيقة، إن الأطروحة السميولوجية عند سوسير هي مرسومة في خطوطها العريضة فقط وتتطابق بالخصوص مع انشغالات العصر، انشغالات التصنيف مقارَنة مع علوم مجاورة مثل: كيف نحدد السميولوجيا (واللسانيات) بالمقارنة مع علم النفس (***المحاضرات***، ص 83) و(أو) بالمقارنة مع علم الاجتماع؟ (عند أدريان نافيل، **كت.م** أعلاه، يعطي النص لسوسير فكرة أن السميولوجيا تقترح أن يكون موضوعها «قوانين نشأة وتحول العلامات ومعانيها»، ويضيف «بأنها جزء أساسي من علم الاجتماع»).

إضافة إلى ذلك، يمكن أن نعتقد بأن سويسر لا يستنتج من اقتراحه نتائج نظرية ولا نتائج منهجية هامة، لأنه يتناول بالخصوص السميولوجيا دائماً في علاقتها باللسانيات. إن له اذن هنا قيمة مرشد وسابق. وكان على إيريك بويسنس *Eric Buyssens* (***اللغات والخطاب***، بروكسيل، 1943) وشارل موريس *Charles Morris* (**اللغة والعلامات والسلوك**، نيويورك، 1940) ولوي بريييتو *Louis Prieto* (**مبادئ النولوجيا**، لاهاي 1964) ورولان بارث أن يستمروا في هذا السبيل بدقة ونصيب مختلفين.

لعل القيمة النظرية الأساسية للأطروحة السوسيرية حول السميولوجيا تكمن في أنها دفعت إلى البحث عن معايير خاصة باللغة - تعريف للغة يرضي أكثر مما قدمه سوسير نفسه. وبالفعل عندما يُعرف سوسير اللسان بأنه «نسق علامات متمايزة تتطابق مع أفكار متمايزة» (***المحاضرات***، ص26) فهو يعيد من جهة أخرى اللاتمييز بين اللسانيات والسميولوجيا الذي كان يرغب جاهداً في توضيحه: هذا التعريف يمكن كذلك أن يشمل طبيعية كل الأنساق السميولوجية غير اللسانية.

5 - اللسان والكلام

إن التعارض الأساسي الذي يقيمه سوسير في عمله بين مفهومي اللسان والكلام يصبح هو نفسه قاعدة لنظريته: فهو [أي التعارض] «الحقيقة الأولى»، كما يقول في مدوناته (***الأصول*** ص 130) و«التفريع الأول» (***محاضرات***، ص 38) وأول اختيار كبير (ن.م. ص 112)

بادئ ذي بدء، يختلف اللسان عن اللغة: فهذه الأخيرة هي الملكة المشتركة بين كل الناس وذاك «منتوج اجتماعي لملكة اللغة» (**مح**، ص25،27). ويقصد بهذا أنه المنتوج الخاص لملكة الكلام الكونية كما يتحقق عند جماعة معينة، أي «التداعيات (associations) المصادق عليها بالإجماع الكلي والتي يشكل مجموعها اللسان»(ن.م.ص32).

إن اللسان منتوج اجتماعي بالمعنى الذي يقصده دوركايم: «حيث يسجله الفرد ،أي يحصله ويتعلمه. بكيفية سلبية»(ص 27). إنه «الجزء الاجتماعي من اللغة، الخارج عن الفرد الذي لا يستطيع لوحده أن يبتكره أو يغيره» (ص 31). كيف يتشكل هذا المنتوج الإجتماعي، «هذه الرابطة الإجتماعية الممثلة في اللسان»؟ (ص 30).

يلجأ سوسير، بغية تشخيص فكرته، إلى بعض الكلمات المستعارة التي تتكرر كثيراً عنده مثل مخزون، مستودع، مجموع، متوسط، آثار.

تارة، يَكون اللسان «مخزوناً موضوعاً عن طريق ممارسة الكلام عند أفراد مجموعة بشرية واحدة» (**الأصول**. ص 266، 288)، فمجموع

العلاقات «التي تشكل جزء من هذا المخزون الداخلي هي ما يُكون اللسان عند كل فرد» (**مح**. ص171)؛ إنه «المواد الموضوعة في خزان اللسان» (**مح**. ص 227) وهو أيضاً «مستودع الأشكال المسموعة والمزاولة ومعناها» (**الأصول**، ص 226).

تارة أخرى، «يوجد اللسان عند الجماعة (البشرية) على شكل مجموعة من الآثار الموضوعة في كل ذهن» (**محاضرات** ص 38)، فهو حصيلة «الصور اللغوية المختزنة عند كل الأفراد. (**مح**، ص30) و«حصيلة المخزونات الفردية للسان» (**الأصول** ص266). لذلك، يتكون عند الأفراد المتكلمين ***آثار*** تكاد تكون متشابهة عند الجميع (**مح**، ص 30). على هذا النحو «يتحقق ما بين الافراد الذين يجمعهم رابط اللغة شيء أشبه بالمتوسط: كلهم سينتجون ـ ليس بكيفية دقيقة بلا شك، ولكنها بشكل تقريبي - نفس العلامات مرتبطة بنفس المفاهيم» (ن.م. ص 29). ويسمي سوسير هذه السيرورة بـ«التبلور الاجتماعي» للكلام داخل اللسان (ص 29).

هذا هو عرض سوسير للسان. إنه «الجانب الإجتماعي» لملكة اللغة. يقول: «عندما نفصل اللسان عن الكلام نفصل أيضاً في نفس الوقت ما هو اجتماعي عما هو فردي» (ص 30). وفيما يخص هذه النقطة، ليس ثمة اختلاف بين ***المحاضرات والأصول***: إذ تضيف هذه الأخيرة، على أكبر تقدير، صورة النموذج الجمعي (Modèle collectif (ص 26). لكن، وحتى في **المحاضرات** يوجد تعبير (استعاري؟) سيكون له مستقبل كبير هو «سَنَن اللسان» (ص 31).

خلافاً لذلك، «فالكلام فعل فردي ينم عن الإرادة والذكاء» (**الأصول**، ص271). اللسان والكلام حقيقتان متمايزتان، ويستدل سوسير على ذلك ببعض حالات الحَبسة (الأفازيا) التي يحافظ فيها المريض على سَنن اللسان (يظهر ذلك بفهمه لكل الإرساليات التي نوجهها إليه) مع فقدانه لاستعمال الكلام. ويسوق سوسير حجة أخرى هي أننا نستطيع قراءة الألسنة الميتة (**محاضرات**، ص 31).

وتمثل دراسة اللسان والكلام «طريقين يستحيل اتباعهما في نفس الوقت» (ص 38).اللسـان له الأسبقيـة: «حيث يمكن لعلم اللسان ليس فقط أن يستغني عن العناصر الأخرى للغة، ولكنه لا يصبح ممكناً إلا إذا أبعدت عنه هذه العناصر الأخرى (ص 31).

وتبرز هذه الثنائية السوسيرية بوضوح في ***الأصول*** كما في **المحاضرات** بدون تغيير. الكلام عند سوسير هو دوماً ظاهرة ثانوية تابعة للسان. يقول: «عندما نفرق بين اللسان والكلام، نفرق في نفس الوقت (..) بين ما هو جوهري وما هو جانبي أو عَرضي إلى حدٍ ما» (**مح** ص30).

ليس الكلام سوى الآلية النفسية الفيزيولوجية التي تتيح [اللسان] إظهار التأليفات (combinaisons) [الخاصة بالسنن]، (ص 31) ونجد هذه الصياغة أيضاً: «تتضمن دراسة اللغة قسمين: قسماً جوهرياً موضوعه دراسة اللسان الذي هو اجتماعي في جوهره ومستقل عن الفرد وقسماً آخر ثانـوياً موضـوعه الجانب الفـردي للسان، أي الكـلام بما فيه التصـويت الذي هـو نفسـي فيزيولوجـي معاً» (ص 37). ويلح سوسير

على أن «الفونولوجيا (لسوء الحظ يعطي سوسير اسم فونولوجيا لما نسميه اليوم فونتيكا) ليست سوى علم مساعد ولا ترتبط إلا بالكلام» (ص 56.).

إضافة إلى هذه الصياغات الصارمة، يقدم مع ذلك تنازلاً سنعود إليه حيث يكتب: يمكننا أن نتحدث عن «لسانيات الكلام» «إلى حد ما»، «لكن لا ينبغي خلطها باللسانيات بالمعنى الحقيقي للكلمة، تلك التي يكون موضوعها الوحيد هو اللسان» (ص 38-39). (غير أن ناشري ***المحاضرات*** سجلا بأن سوسير «لم يتناول قط في دروسه لسانيات الكلام» (ص 197، هـ 1)، وقد لاحظ بالي ذلك دون شك بنبرة متأسفة).

نظرياً، يكون تأثير الكلام مُهما في نقطة واحدة تتعلق بشرح تطور اللغة: «كل ما هو دياكروني في اللسان لا يكون كذلك إلا بواسطة الكلام» (ص 138). ويقصد سوسير بهذا أن كل تجديد لساني هو فردي أولاً: «لا شيء يدخل في اللسان قبل تجريبه في الكلام، وأصل كل الظواهر التطورية يوجد في دائرة الفرد» (ص 230). لكن سوسير يضيف مع ذلك هذه النظرة الممتازة التي مفادها أن التنويع الفردي، «السيرورة المولِدة» (وهو لفظ آخر له مستقبل زاهر) مشروطة بالإمكانيات الموجودة في نظام اللسان. يقول: «كل ابتكار لا بدّ أن يكون مسبوقاً بمقارنة لاواعية بين المواد الموضوعة في خزان اللسان حيث تكون الأشكال المولدة -بكسراللام- مرتبة» (ص 227). وهو ما يعبر عنه بهذه الشكل التقليدي: إذا استطاع الطفل الصغير أن يخلق هذا الشكل الشاذ *viendre* بالنسبة لـ*venir* أو *mouru* لـ *mort* (ص 231)

فلأن نسق اللسان يملي عليه القياس بالنسبة للمصدر أو إسم المفعول اللذين لم يعرفهما بعد:

éteindrai: *éteindre*: : *viendrai* : x (= *viendre*)

couru: *courir* : : x (= *mouru*) : *mourir*

لا يشير سوسير إلى ما يمكن أن تدين به ثنائيته إلى دوركايم أو تارد. وبالمقابل يقربها ويميزها بوضوح عن التعارض الذي تقيمه اللاتينية بين *langua* و*sermo* وعن التعارض الذي تقيمه الألمانية بين *sprache* و*Rede* (مح، ص31). فهذا التعارض نجده من قبل عند كل من فون دير غابلينتز Von der Gabalentz وهرمان بول H. Paul (على شكل sprachursus ـ individuelle sprachttgkiat) ولا يشير سوسير إلى الزوج الهومبولتي الشهير ergon ـ energia الذي يمكن أن يكون شبيها به رغم غموضه.

في الحقيقة، إن البحث عن الأصول والسابقين قلما يفيد هنا. ترجع الأصالة الحقيقية لسوسير في المكانة المركزية والطابع الإجرائي الذي يعطيه لتمييزه. وقد ناقش هذه الثنائية الرفيعة مارسيل كوهن M. Cohen، وهو أحد المساعدين الأقدمين والمخلصين لمايي (Meillet)، الذي رأى فيها وما يزال شهادة على «المزاج الثنائي» لسوسير و«إطاراً [...] غير ضروري ألبتة للدراسة اللسانية[9]»، وهو مؤشر على المقاومة التي لقيها فهم سوسير داخل محيط مايي.

9- Linguistique et idéalisme, dans Recherches internationales à la lumière du marxisme.Editions de la Nouvelle critique, mai-juin 1958.

انظر كذلك مقاله عن البنيوية في اللسانيات، مجلة La pensée، أكتوبر 1967.

اعتقد البعض كذلك بأن المفهوم السوسيري قد يؤدي إلى إحداث خلط بين ***الكلام والأسلوب***، ومن المؤكد أن خطر الخلط موجود في بعض صياغات سوسير نفسه عندما يتحدث عن الكلام المستعمل من طرف الفرد المتكلم .قصد التعبير عن فكره الشخصي. (**مح**، ص31) وعن .الاستعمال الفردي لسَنن اللسان حسب الفكر الفردي. (**الأصول**، ص271)، وخصوصاً إمكانية إيجاد لسانيات للكلام حيث استطاع بالي أن يجد فيها منذ 1904 دافعاً لتأسيس ما لم يطلق عليه لسانيات الكلام بل أسلوبية.

وعكس ذلك، تعتقد ميلكا إيفيتش بأن سوسير لم يلح في الحقيقة على التضاد بين اللسان والكلام بنفس الدرجة التي نجدها في ***المحاضرات*** وبأنه يعلم بأن هذا التفريق النظري «يستحيل التمسك به عملياً»[10] لكن ليس هناك شك، بعد قراءة ***الأصول***، في أن سوسير نفسه سجل هذا الإلحاح وهذه التراتبية مع أنه ظل واعيا بجدلية الذهاب والإياب بين المفهومين.

بالنسبة لمارتيني Martinet في كتابه *Eléments de linguistique générale* ***(ص*** 30-31)، يكمن خطر هذا «التمييز الصالح جداً بين اللسان والكلام» في أنه «قد يدفع إلى الاعتقاد بأن للكلام تنظيماً مستقلاً عن اللسان بشكل قد نستطيع معه مثلاً تصور وجود لسانيات للكلام في مقابل لسانيات للسان. والحال أنه ينبغي الاقتناع بأن الكلام لا يعمل إلا على تجسيد تنظيم اللسان. ولا نستطيع بلوغ معرفة

10- M. IVIC, Trends. p. 125.

باللسان إلا بعد استقصاء الكلام والسلوك الذي يحدثه عند المستمعين. ومن أجل هذا يتوجب علينا في الكلام صرف النظر عن كل ما هو خاص بفرد واحد، ما هو غير لساني، أي ما لا يشكل جزء من العادات الجمعية المكتسبة خلال تعلم اللسان، مثل جرس (رنة) الصوت».

ونظرا لكونه مقتنعا بأن ***المحاضرات*** «قد تمثل بصورة متصلبة مرحلة فكرية في طور النمو»، سيعود مارتيني إلى هذا المشكل في ***اللسانيات السانكرونية*** لينبه بأن التمييز بين الفونتيكا والفونولوجيا لا يطابق التعارض السوسيري بين الكلام واللسان الذي يقول عنه بأنه «صعب الاستعمال من الناحية العملية» رغم «خصوبته» (كت.م.ص.35و84)، وبأنه ينبغي أن نفضل عليه «المقياس الفونولوجي [الأكثر دقة] القائم على الوظيفة».

تسجل هذه التحديدات الحديثة العهد الأهمية النظرية والحدود التاريخية للصياغات السوسيرية. فمن جهة أولى، عندما يميز سوسير بين اللسان والكلام ويشدد كثيراً على أولوية اللسان فإنه يؤسس التمييز العلمي بين السَنن والإرسالية كما يحدد المفهوم العلمي للنسق في اللسانيات الذي ظل غائماً حتى عهده (أي عهد سوسير).

ومن جهة أخرى، عندما يلح سوسيرعلى الطابع الثانوي للكلام وللإنجاز الفيزيولوجي وللفونتيكا فإنه يكون على الطريق (فقط على الطريق) المؤدي إلى الفونولوجيا: إنه يشعر ويعلم على سبيل المثال بأن الخصائص الصوتية المختلفة جداً التي تميز تحقق / i/ بحسب البيئات الصوتية وبحسب المتكلمين تخفي ـ إذا نحن أخذناها موضوعاً للدرس في حد ذاتها ـ المشكل اللساني الحقيقي الذي هو: لماذا تشكل

كل هذه التحققات الصوتية المتنوعة نفسَ الإشارة *اللسانية*، الفونيم /i/؟ (اختلاف التحققات فيما يخص تواتر الذبذبات والنغمات التوافقية والحدة السمعية والقوة النطقية والمدة والرنة الشخصية،..الخ). -صوت [i] عند طفل، أو مراهق أو امرأة أو شيخ أو رجل مغتاظ أو عند صاحب الصوت الحاد أو الغليظ ألخ-: إن هذا هو ما يفسر سوء الفهم الذي لقيه تعليمه في وقت تميز بالحماس الناتج عن التطورات الهائلة للفونتيكا التجريبية التي باتت مهددة بالتيه، بل تاهت في وصف الكلام. أما فيما يخص هذه النقطة، فيمكن الاعتقاد بأن سوسير يدين بشئ - يقول ذلك هو بنفسه في ومضة عابرة في *الأصول* (ص 51)- إلى الروسيين بودوان دوكورتني B. De Courtenay وكروشفسكي Kruszewski اللذين كانا على وعي واضح بمآزق «الفونتيكا من أجل الفونتيكا» فاقترحا التخلص منها بالتمييز بين «الفونتيكا الفيزيولوجية» (الوصف الفونتيكي للكلام) والفونتيكا النفسية (البحث في الخصائص المكونة للإشارة اللسانية اللامتغيرة بحسب التحققات الفيزيقية المختلفة جداً). وقد حلّل دي مورو جلياً عمق هذه الروابط بين سوسير و دوكورتني وكروشفسكي (*corso*، ص 306-308، هـ 6).

6ـ السانكرونية والدياكرونية

يعتبر سوسير التعارض الذي يقيمه بين هذين المفهومين بمثابة «ثاني تفريع» مكون للسانيات وثاني أكبر «اختيار» نظري و«مفترق الطرق» الثاني بعد التعارض بين اللسان والكلام (**محاضرات**،ص138). وفي هذه النقطة بالذات، لا نلاحظ اختلافاً بين ***المحاضرات والأصول*** من شأنه أن يقلل من وضوح هذا الموقف.

تدرس اللسانيات السانكرونية (التزامنية) اللسان بغض النظر عن فعل الزمن فيه، حيث يُدرَك اللسان خلال ردح زمني وجيز قدر الإمكان وحيث يمكن تفحصه بمعزل عن التطور والحركة. إنها تدرس اللسان على «محور المتزامنات» وليس على محور «المتتابعات» (**مح**،115). وبإيجاز، هي تنظر في «حالات اللسان» (ص 143،142،140،127،126،125،119،17 ألخ) - يستعمل سوسير أحياناً لفظ «توازنات» (**مح**، ص 126، **الأصول**، ص278)، أي لحظات ثابتة أو منظوراً إليها كذلك، ذات تاريخ معين ومحددة زمنياً.

يشير سوسير إلى أنه يعتبر مفهوم حالة اللسان مفهوماً إجرائياً فيكتب: «يمكننا أن نقول أيضاً بأن اللسانيات السكونية statique (هذه هي التسمية الأخرى التي يقترحها للسانيات السانكرونية) تهتم **بمراحل معينة**؛ لكن لفظ حالة هو أفضل» (**مح**، ص142)، لأن

المصطلح الأول يتضمن صورة عن حدود واضحة وبارزة تتميز «بثورات مفاجئة إلى حد ما». كما يضيف: «علاوة على ذلك، فإن التحديد الزمني ليس هو الصعوبة الوحيدة التي نصادفها في تحديد حالة اللسان: نفس المشكل يطرح بصدد المكان. باختصار، لا يمكن أن يكون مفهوم حالة اللسان إلا تقريبيا»(ص 143).

«إذن ستهتم اللسانيات السانكرونية بالعلاقات النفسية والمنطقية الرابطة بين أطراف متعايشة تكون نسقاً فيما بينها من خلال إدراكها من طرف وعي جماعي واحد» (ص 140). مثلاً، في الألمانية القديمة وخلال تاريخ معين كان جمع كلمات مثل: gast = «ضيف» و hantig = «يد» و föt = «قدم» و töth = «سن» و gös = «إوزة» يتم بإضافة لاحقة i : gosi و t.thi و f.ti و hanti و gasti. هذا هو نوع الاطراد الذي تصفه اللسانيات السانكرونية (الذي يحمل هنا اسم النسق أو النسق الأصغر sous-système للجمع في الألمانية القديمة). أما ما حدث عبر الزمن، لأسباب متصلة بالفونتيكا، من تحول hanti إلى henti إلى hente ثم hende (في الألمانية الحديثة نجد h.nde)، فهو لا ينتمي إلى اللسانيات السانكرونية ولا ينبغي أن يظهر في وصف سانكروني (مح، ص120).

أما اللسانيات الدياكرونية (التعاقبية) فهي التي أنيطت بها مهمة دراسة اللسان على محـور المتتاليات (مح، ص115)، أي «الروابط الجامعة بين أطراف متتابعة وغير مدركة من طرف وعي جماعي واحد، حيث تحل الواحدة محل الأخرى دون أن تشكل نسقاً فيمـا بينها» (ص 140، أنظر كذلك ص193).

موضوع اللسانيات الدياكرونية الخاص إذن هو «فعل الزمن» (ص 113)، و«تدَخُّل عامل الزمن» في اللسان (ص 114). ومجالها هو التغير اللساني و«تحول اللسان» والمراحل المتتابعة «لتطور» لغة ما (ص 117). يرفض سوسير تسميتها باللسانيات التاريخية لأنه يعتبر هذا المصطلح جد فضفاض، ويفضل عليه اللسانيات التطورية أو أحسن من ذلك: الدياكرونية (ص 117). وقد حصل أن سماها أيضاً الديناميكية (**مح**، ص 131، **الأصول**، ص259) وحتى «اللسانيات الحركية» في مناسبة واحدة (**الأصول**، ص256) ـ وهي كلها مصطلحات ملموسة.

يتعلق الأمر بالنسبة لسوسير بـ «سبيلين مختلفين تمام الاختلاف» (**مح**، ص 114) وبقسمين من [اللسانيات] لكل واحد منهما طابعه الخاص (ص 115)، بل «بنوعين من اللسانيات» في الصفحة التالية (ص 116، أنظر أيضاً العنوان الفرعي للفقرة5، ص127). ويلح على كون «التعارض بين وجهتي النظر يظهر فيما يخص كل النقط» (ص 127)، وأنه «مطلق ولا يقبل أي حل وسط» (ص 119)، وأنه «من الضروري عدم خلط وجهتي النظر» (ص 129).

هذا الإلحاح يفسَّر بالمذهب الشائع آنذاك، ومنذ مائة سنة، القائل بأن اللسانيات علم تاريخي، وأن «الدراسة العلمية الوحيدة للغة تقوم على المنهج التاريخي» وأن «كل دراسة لسانية علمية ليست تاريخية في أهدافها ولا في مناهجها يمكن أن تفسر إما بقصور من

جهة الباحث أو بنقص في المصادر التي يتوفر عليها»[11] - وهي عبارات كافية لتسجيل سعة الثورة الكوبيرنيكية التي أحدثها سوسير. لأنه زيادة على تصريحاته السابقة يضيف تلك المتعلقة بالأسبقية النظرية والمنهجية للسانيات السانكرونية على الدياكرونية، فيكتب: "للطابع السانكروني الأسبقية على الآخر نظرا لأنه هو الحقيقة الوحيدة بالنسبة لجملة المتكلمين". (مح، ص 122)

يبرر سوسير هذه الثنائية النظرية ببراهين تختلف، بما فيه الكفاية، مصدراً وقوة. يلاحظ أولاً بأن «أغلبية العلوم تجهل هذه الثنائية الجذرية» (ص 114)، إما لكون مادتها لا تتأثر بالزمن (الفيزياء، الكيمياء) وإما لعدم وجود رابط داخلي بين العلم المدروس وتاريخه (القانون الدستوري [؟](ص 114). ثم يشير بعد ذلك إلى أن الثنائية تفرض نفسها في اللسانيات كما في الاقتصاد السياسي، لأننا إزاء مفهوم القيمة (ص 115)، ولأن القيم ليست أشياء. لكنه يضيف مباشرة بأن التمييز بين السانكرونية والدياكرونية إجباري في اللسانيات نظراً لكونها تدرس أنساقاً قيمية مطلقة الاعتباطية (ص 116). ويبرر هذا التمييز بعد ذلك بشيء مختلف جداً من الناحية النظرية وهو أننا في علوم أخرى لا نجد أنفسنا إزاء نسق للقيم في مستوى هاته الدرجة من التعقيد (ص 116). هذا المزيج من البراهين يضم دون شك ملاحظات سديدة، لكن يمكن الاعتقاد بأن الانجاز النظري الحقيقي لم يتم بعد على مستوى إبيستمولوجية أكثر ضبطاً.

---

11 – Herman Paul, Prinzipien der Sprachgeschichte, 1880, p.1.

لحسن الحظ، يسوق سوسير براهين أكثر وضوحاً إذ يقول بأن هذين النوعين من اللسانيات خاضعان لمنهجين إثنين (128). ليس للسانكرونية إلا بعد واحد (غير زمني) أما الدياكرونية فلها بعدان: أحدهما استباقي prospective والآخر استعادي retrospective. إضافة إلى هذا تعالج الأولى كل لغة على حدة، وتجد الثانية نفسها مضطرة إلى الاشتغال على مجموعة من اللغات في تطورها. قد تبدو هذه الاختلافات أيضاً خارجية بما فيه الكفاية.

كما يضيف سوسير بأن لهذين النوعين من اللسانيات قوانين في غاية الاختلاف. ويقول مستعملاً ألفاظاً دوركايمية بأن السانكرونيات عامة وليست إجبارية: فهي تلاحظ اطرادات عابرة واتفاقات حول نقطة ما لمدة محددة. أما الدياكرونيات فهي إجبارية (التغير الذي يحدث الانتقال من *hanti* إلى *henti* على سبيل المثال سيؤثر على كل الكلمات التي لها نفس البنية الصوتية سواء تعلق الأمر بجمع نحو gasti > gesti أو بتصريفات فعلية نحو tragit > tragt، لكنها تكون دائماً عرضية وخاصة (ص 130.131). ويبدو أن هذا التقابل الدوركايمي يلعب قليلاً على التعددية الدلالية لمصطلحي **إجباري وعام**.

وأحسن برهان يقدمه سوسير هو البرهان اللساني المحض، إذ يلاحظ أنه ينبغي الفصل بين اللسانيتين لأنه [أي المظهر السانكروني] هو «الحقيقة الوحيدة بالنسبة لجملة المتكلمين» (ص 128)، ولأن تتابعها [أي الإجراءات اللسانية] «غير موجود في الزمن بالنسبة للفرد المتكلم، ولأن «تدخل التاريخ لا يمكنه إلا أن يفسد [حكم اللغوي]»(ص 1 17).

إذا كان سابقاً للفظ *dépit* (أسى) في الفرنسية معنى *mépris* (احتقار) فهذا لا يمنعه حالياً من أن يكون له معنى مختلف كلية: «الاشتقاق والقيمة السانكرونية شيئان متمايزان» (ص 135-136). إن الاشتقاق غير ضروري لوصف القيمة: فالمتكلم وواصف الفرنسية المعاصرة ليسا في حاجة إلى أن يعرفا ما هي سلسلة الاستعمالات المؤدية من *littera* في اللاتينية إلى لفظ *littérature* لاستخدامه بمعناه المعاصر. ويبرهن سوسير، فيما يتعلق بهذه النقطة، عن نفس الواقعية الجدلية الخاصة بالتعارض بين اللسان والكلام: إنه لا يحاول أن يختزل بكيفية قسرية وقائع ناتجة عن حركة للأشياء أو عن وجهات نظر حول الأشياء في وحدة جوهرية ميتافيزيقية مجردة ومصطنعة. يقول «إن الحقيقة السانكرونية [في بعض الحالات] تظهر وكأنها نفي للحقيقة الدياكرونية، وعندما ننظر إلى الأشياء سطحياً نتوهم بأنه ينبغي الاختيار؛ في الحقيقة ليس هذا بضروري حيث إن إحدى الحقيقتين لا تنفي الأخرى» (ص 135). ولا يمكن أن نقول أحسن من أن الأمر لا يتعلق بثنائية ميتافيزيقية، بل بثنائية منهجية، ولا بتراتبية مدحية أو قدحية لقيم إبيستيمولوجية، ولكن بتراتبية علمية إجرائية. كما يعارض سوسير موقف معاصريه الذي ظل ثبوتياً بكيفية لا واعية (هل اللسان أو الكلام، الوصف أو التطور هما الجوهر الأولي السامي؟) بجدليته المجازية - التي سنصادفها - المتعلقة بالورقة التي لا يمكن تقطيع وجهها الأول دون تقطيع وجهها الثاني أيضاً.

وبطبيعة الحال، لهذه الأطروحة السوسيرية رواد متقدمون دون أن نستطيع التأكيد بأن الأمر يتعلق هنا بمنابع اغترف منها سوسير. كان

بودوان دوكورتني، الذي عرفه سوسير وخبره جيداً، ينادي سابقاً (1895) بالتمييز بين ملاحظة الظواهر اللسانية في نقطة زمنية معينة وبين تطورها. وكان يضيف لتحديد الأولويات «بأنه لا يمكن أن يكون المرء عالماً إحاثياً خبيراً دون دراسة البيولوجيا أولاً».

ويقترح أنطون مارتي Anton Marty ـ السويسري الألماني الذي كان يدرس ببراغ والمعاصر لسوسير، لكن أيا من أعماله لم يعثر عليه في مكتبة هذا الأخير- فصلَ الجزء الوصفي عن الجزء الوراثي لفلسفة اللغة (1908). وأخيراً يُذَكِّر كتاب *corso* لدي مورو الذي هو المرجع الأكثر غنى حول جميع المشاكل السوسيرية بأن أوغيست كومت Auguste Comte سبق له أن ميز بين «السوسيولوجيا السكونية والسوسيولوجيا الديانيمية» (**كت.م.** ص 350)، لكنه أيضاً هو الذي سجل ـ بتلخيصه لجميع الوثائق الحديثة الكفيلة بإنارة البيوغرافيا الفكرية لسوسير ـ بأنه من الممكن اليوم التأكيد، اعتماداً على النصوص (التقريرات السنوية للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا) كيف أن التعارض بين الوصف السانكروني والتحليل التاريخي سبق له أن شكل الأساس لتعليمه (سوسير) منذ 1881؛ مما يسحب هنا كذلك كل أهمية عن قضية الأصول (دي مورو، **كت.م.** ص 304-305).

وبصورة عامة، استقبلت ثنائية اللسان والكلام استقبالاً سيئاً للغاية كما تعرضت لسوء الفهم من طرف معاصريه ومن طرف لسانيي الجيل اللاحق مباشرة وهم الذين تعودوا جميعاً على أسبقية وامتياز اللسانيات التاريخية. وعموماً لم تناقَش مبرراتها القابلة للنقاش بل تلك التي لها طابع لساني ـ خارجي.

طعن جيسبرسن Jespersen (في 1916) في مفهوم حالة اللسان نفسه وبيُن بأنه في كل لحظة تكون اللغة في طور التغير حول نقطة دلالية أو صوتية أو نحوية ما؛ كما بين بأن استعمالات وسجلات بل انساقاً مختلفة تتعايش في لغة واحدة. وقد رأينا أعلاه بأن الأجوبة على هذه الإعتراضات هي ***المحاضرات*** نفسها.

أثبت مارتيني بكيفية واضحة بأن الظواهر الملحوظة (مثلاً التعايش في باريس سنة 1967 بين/a/ أمامية و/α/ ورائية للفظي *patte* و*pâte* (قائمة الحيوان والعجينة) اللذين لا يتم تمييزهما بنفس الدرجة حسب الأجيال) «يمكنها أن تكون إما موضوعاً لصياغة سانكرونية: التعارض بين/a/ و/α/ ليس عاماً في الاستعمال المعاصر، وإما موضوعاً لصياغة دياكرونية: تعارض/a/ و/α/ يميل إلى الزوال في الاستعمال المعاصر» (ص 34-35 *Eléments*). كما أن الوصف السانكروني يلزمه أن يكون دائماً هو الأول ولا يقتضي أي معرفة بالحالات السابقة للغة (حالة لغة ليس لها تاريخ توصف لأول مرة، كما في أعماق الأمازون مثلاً). لكن الأجيال التي رُبيت على اللسانيات التاريخية تصر - كما يفعل فون وارتبورغ Von Wartburg المتخصص الكبير في علم الإشتقاق الروماني - على توخي التوفيق بين ما لا يتوافق منهجياً والدعوة إلى ممارسة اللسانيتين معاً وفي آنٍ واحد لكي تكمل الواحدة منهما الأخرى.

نشعر أيضاً بهذا الحنين نحو التوفيق عند موريس لوروا Maurice LeRoy الفيلولوجي المتخصص في اليونانية الذي يقول بنبرة آسفة رغم أنه جد متفتح على سوسير في كتابه ***التيارات الكبرى للسانيات***

الحديثة: «لم يكن سوسير مرتاحاً للتمييز بين هذين المحورين [...] فاعتبر دراسة الروابط في الزمن والنسق ممنوعة في آنٍ واحد»(ص 69). ويعتقد أن الصياغات السوسيرية بمبالغتها أو تناقضها تفسَر فقط بالطابع الشفوي لتعليمه وبعناد الرائد الثوري، أي بأسباب نفسية وليس بأسباب نظرية (ص 66).

في العمق، كل هذا موجود مسبقاً عند مايي ذي الموقف النموذجي. يقول في عرضه عن *المحاضرات* (في 1916) بأنه وجد فيها عقائد أستاذه كما كان بالإمكان توقعها في الغالب قبل ثلاثين سنة - وهو الذي كان تلميذا لسوسير في سنوات 1885. وقد كتب منذ 1906 منخرطاً في المنهجية الوصفية لسوسير: «ملاحظة خالصة وبسيطة للظواهر لا تعير الانتباه إلى التاريخ - هكذا ينبغي دائماً أن نصف اللغات» (ج 1، ص9، *Linguistique*).

كما كتب أيضاً سنة 1918: «يمارَس النحو بطريقتين: يكون وصفياً أو تاريخياً. في الحالة الأولى، نقتصر على عرض الاستعمال اللساني لمجموعة معينة من الناس، في مرحلة معينة وفي تاريخ معين» (ن.م. ج 1، ص 44).

لكن في نفس الوقت (1918) أملى عليه اللساني المقارن الذي بقيه في العمق هذه الصياغات المتناقضة: «لا يختلف النحو الوصفي عن النحو التاريخي اختلافاً جوهرياً. كل وصف هو بشكل ما تاريخي» (ن.م.ص 44)، أو كذلك: «هكذا ليس ثمة في العمق، فيما يخص الدراسة الوضعية للغات الخاصة، سوى نشاط نحوي واحد هو في نفس

الآن وصفي وتاريخي يبرز إما الجانب الوصفي فقط وإما الجانب التاريخي حسب الهدف الخاص للبحث الذي نجريه» (ن.م.ص48).

كما يقول أيضاً (في 1913) بأن «هذين النوعين من القضايا يستعصيان على الفصل» (ن.م. ص 19). بتصريحات من هذا القبيل، رغم أنه يمكن الدفاع عنها بكيفية أو بأخرى، تضيع كل الفائدة النظرية والمنهجية للفكر السوسيري. إن سوء الفهم (العميق) الذي أبداه مايي إزاءه هو من العناصر الرئيسية لعزلة سوسير[12].

12- مازلنا نجد إلى اليوم عند مارسيل كوهن، الوريث المخلص لفكر مايي، صدى لهذا المظهر شبه السلبي دائما والمحدود في جوهره لتعاليم مايي بخصوص سوسير: «لماذا نقول الدياكرونية بدلا عن التاريخ إن لم يكن ذلك من أجل معارضتها بالسانكرونية، وكيف نقول الديانكرونية إن لم يكن هناك اشتراك زمني مع شيء آخر؟ مهما يكن من أمر،فقد سال مداد كثير لإثبات ما يبدو أن الإجماع وقع عليه وهو أن وصف الأنساق في لحظة محددة يكون أسهل في الإنجاز بكيفية تامة إذا كان للباحث إمكانية أخذ الماضي، السابق على تلك اللحظة، في الإعتبار» (ص 64-65، (Linguistique et idéalisme). أنظر كذلك (في La pensée، أكتوبر 1967) استئناف التلميحات الإنتقادية دائما لـ«المزاج الثنائي» لسوسير (ص 33). لا أستشهد بمايي وبكوهن من أجل السخرية لأنني أدين لهما بالشيء الكثير ولكن لأذَكر، نفسي أولا، بالأخطاء المؤثرة التي تقع خلال كل لحظة في نقل المعرفة العلمية الأكثر تقدماً.

7- نظرية العلامة

خلافاً لما لاحظناه بالنسبة لمفاهيم السميولوجيا واللسان والكلام والسانكرونية والدياكرونية، فإن مكانة نظرية العلامة في المذهب السوسيري ليست بديهية كما أنها ليست محددة بوضوح من لدن سوسير.

إن محاولة تحديد هذه المكانة ليست مشكلاً عديم الفائدة إذا نحن فكرنا في الأهمية التي يعطيها سوسير نفسه لهذه القضية. لقد كان يكرر بأنه «من السهل أن نطرح تأكيدات وتصورات متتالية حول اللغة، [لكن] المهم هو أن نرتبها في نسق » (**الأصول، ص** 29)، أو كذلك: «غالباً ما يكون اكتشاف حقيقة ما أسهل من إعطائها المكانة التي تستحقها» (*مع* ص100). ويقول أيضاً: «تظهر لي اللسانيات العامة أشبه بنسق هندسي حيث نصل إلى نظريات يتوجب البرهنة عليها [وتنظيمها أو ترتيبها]. والحال أننا نلاحظ بأن النظرية 12 هي بشكل آخر نفس النظرية 33» (*الأصول* 30.). من المحتمل أن تكون مكانة نظرية العلامة قد طرحت لسوسير هذا النوع من المشاكل التي كان واعياً بها إلى حد بعيد كما نرى.

في محاضرته الأولى عن اللسانيات العامة، تلك التي قدمها سنة 1906-1907، لا تتضمن مدوناته التي بقيت لنا أي عرض لنظرية

العلامة السوسيرية كما نعرفها. في المحاضرة الثانية 1908-1909، منذ الدرس الثاني ومباشرة بعد عرض عام حول اللسانيات وموضوعها، يقدم الخصائص المميزة للعلامة وهو يتحدث عن السميولوجيا: **الاعتباطية والاختلافية** في اشتغالهما داخل إطار نسق من القيم مؤسس على علاقة بين المادة الصوتية والفكرة، بين الجانب المادي والجانب التصوري للعلامة نفسها (صورة الورقة). أما ثنائيتا السانكرونية والدياكرونية واللسان والكلام فلم يقدمهما إلا بعد ذلك. في المحاضرة الثالثة (1910-1911) أدمجت نظرية العلامة متأخرة (الدرس من 2 إلى 30 ماي) ومسبوقة بعرض يعارض فيه بين اللسان واللغة والكلام (25 أبريل) ومتبوعة بتقديم ثنائية السانكرونية/الدياكرونية (30 ماي 6 و9 و13 يونيو). وهذا هو الترتيب الذي احترمه الناشران.

في الواقع، لو عاش سوسير أكثر لكان من المحتمل أن تشكل نظريته حول العلامة نقطة بداية وتنظيم نظريته برمتها. وهذا هو ما عبر عنه مارتيني منذ 1957 بنبرة نقدية غير مرتاحة: «على غرار أعمال عديدة لم يحظ نشرها بموافقة أصحابها، لا شك أن *م.ل.ع* تمثل، بشكل متصلب، مرحلة فكرية في طور الازدهار؛ فالبنيوي المعاصر الذي تعلم منها اعتباطية العلامة وترك فكره يتبلور حول هذا المفهوم، يندهش، بعد إعادة قراءة الكتاب، للطابع المشتت قليلاً لتعليمه المرتبط بالخصائص الاتفاقية للسان التي تظهر على الأقل بشكلين هما اعتباطية الدال ومفهوم القيمة. قد ينتظر تركيباً يشمل،

تحت عنوان واحد، جميع السمات التي تساهم في ضمان استقلالية اللسان بالمقارنة مع غيره وتحديد ما يفصله عن الواقع اللساني الخارجي كيفما كان نوعه. والقارئ هو الذي عليه أن يكتشف بأن إسناد صفة «اعتباطي» المرتبطة بدال كذا إلى مدلول كذا ليست سوى شكل من أشكال استقلالية لسانية يتضمن وجهها الآخر اختيار وتحديد المدلولات. في الحقيقة، إن استقلال اللسان عن الواقع غير اللساني يتجلى، أكثر من اختيار الدوال، في الكيفية التي يفسر بها هذا الواقعَ بطريقته الخاصة، واضعا بالعودة إليه دون شك، ولكن بسلطة تامة، ما كان يسمى مفاهيمه وما يمكن بالأحرى أن نسميه بتعارضاته» (*اللسانيات السانكرونية*، ص 34).

وقد حاول دي مورو أن يوضح هذه المكانة المركزية لنظرية العلامة عند سوسير، مذكرا (ص 331 من كتابه *corso*) بأن سوسير نفسه قدم اعتباطية العلامة باعتبارها «المبدأ الأول» (*المحاضرات* ص 101)؛ لكن الأمر يتعلق هنا بقراءة مغلوطة بحيث لا يقدم سوسير، في هذا الموضع، اعتباطية العلامة على أنها «المبدأ الأول» إلا بالمقارنة مع الخاصية الثانية للدال ـ تلك التي يسميها «المبدأ الثاني» ص103 ـ أي خاصية الخطية. هذان العنوانان الفرعيان من فصل كتابه حول طبيعة العلامة اللسانية لا يمحيان التصريحات التي أدلى بها عن التفريعين الرئيسيين «الأول» و«الثاني» في اللسانيات أي الاختيار بين اللسان والكلام والاختيار بين السانكرونية والدياكرونية. يمكن أن نلاحظ فقط بأن هذين التفريعين يطرحان قواعد إجراء وصفي، ولعلهما لا يطرحان

بنية منطقية لحقيقة لسانية بديهية. وقد بين دي مورو بما فيه الكفاية أن النظرية السوسيرية للعلامة تتحكم في مفهوم النسق (ص *corso*،333- 334.) الذي يتحكم في مفهوم حالة اللسان، أي السانكرونية والدياكرونية.

ما هي هذه النظرية السوسيرية للعلامة؟ إنها تثبت، خلافاً للأفكار البالية الكلاسيكية منذ الإنجيل وأفلاطون، بأن العلامة اللسانية لا تجمع شيئاً باسم (**المحاضرات**، ص 98). يقترح سوسير أن يقول بأن العلامة تجمع «مفهوماً بصورة سمعية» (ن.م) مشيراً بهذه الطريقة إلى الطابع المجرد غير المادي للعلاقة بين واقعين «نفسيين». إذن، فالعلامة كيان ذو وجهين: الوجه الدال (*الدال*) والوجه المدلول عليه (*المدلول*) (*المحاضرات*، ص99).

لكن هذا التقديم لطبيعة العلامة لا يرضيه بما فيه الكفاية، فيلح، من جهة أولى، على الرابطة التي لا تنفصم عراها بين الدال والمدلول «اللسان أشبه بورقة: الفكر فيها هو الوجه الأول والصوت هو الوجه الثاني بحيث لا يمكن تقطيع الأول دون تقطيع الثاني» (ص 157). ومن جهة أخرى يلح على أن هذه «التقطيعات» المتلازمة للواقع الصوتي والواقع التصوري ليست أبداً «معطاة سلفاً» دفعة واحدة من طرف الواقع غير اللساني الكوني، بل هي تتنوع بحسب الألسنة (ص 161).

من هذه المقدمات يستنتج سوسير تحديد العلامة الأكثر دقة الذي لم يسبق لأي لساني قبله أن أعطاه والذي يظل المِلك المشترك لكل اللسانيين بعده. أولاً، العلامة اللسانية اعتباطية. يدين سوسير

بهذه الأطروحة إلى وايتني Whitney. عندما يتحدث أيضاً عن العلاقة التي تجمع الدال بالمدلول على أنها اتفاق (***المحاضرات***، ص 101 ***والأصول***، ص257) أو عقد (**المحاضرات**، ص 104) فهو يقصد بذلك بأنه ليست ثمة رابطة داخلية بين المفهوم الممثل- بفتح الثاء - المتعلق بـ «*soeur*» مثلاً، والسلسلة الصوتية التي تمثله [R + ö+ s]. قد تكون هذه الروابط الداخلية من النوع الذي نلاحظه أحياناً في السجع والجناس والانسجام المحاكاتي وتعبيرية هذه الكلمة أو تلك. إذن يسمي سوسير ذلك بالروابط الطبيعية بين الدال والمدلول، وحيثما وجدت هذه الروابط «ولو أنها غير مكتملة» نكون إزاء رمز وليس إزاء علامة (ص 101). أما الدليل على خاصية الاعتباطية للروابط بين الدال والمدلول (في العلامة اللسانية) فيظهر في تنوع التسميات من لغة إلى أخرى بالنسبة لنفس الواقع المعني (أو المدلول عليه): حصان، *misatim*، *cheval*، *horse*، *pferd*، *lochad* الخ...

يسمي «سوسير أيضاً هذه الخاصية الاعتباطية للعلامة، بكيفية أقل ملاءمة، بأنها غير معلَلة (ص 101): في الفرنسية «*vingt* غير معلَل لكن *dix- neuf* ليس غير معلل بنفس الدرجة» (ص 11)، لأنه يتضمن ببنائه نفسِه وسيلة لاستنتاج مدلوله انطلاقاً من قاعدة تجمع بين دالين. نفس الشيء ينطبق على *portier* مقارنة بـ *porte* و*feuillage* مقارنة بـ*feuille* و*fréquemment* مقارنة بـ *fréquent*.

وبحديثه عن العلامات غير المعلّلة والعلامات المعللة ثم عن الاعتباطي المطلق والاعتباطي النسبي (ص 180، 221، 228) أوشكَ

سوسير أن يلف مفهومه الأساسي بالغموض لأنه يستعمل لفظ **اعتباطي** بمعان متعددة: المعنى الذي يتعارض فيه **اعتباطي وغير معلل** مع رمزي، والمعنى الذي يتعارض فيه **اعتباطي** مع **معلل** حيث للأول معنى ترادفي **لا** مقبول مع **غير معلل**. ليس للفظ **معلل** أي علاقة بلفظ رمزي، بينما من المفروض أن يكونا مترادفين لو أن ***اعتباطي*** استعملت هنا بمعنى واحد فقط. في الحالة الأولى، يحدد البنية الأساسية لكل علامة لسانية، وفي الحالة الثانية يكتفي بتحديد المشكل الجزئي جداً المتعلق ببناء معنى العلامات مؤتلفة مع بعضها البعض في هاته اللغة أو تلك (ينتمي المشكل الأول إلى نظرية العلامة، والثاني إلى علم الصرف أو التركيب في هاته اللغة أو تلك).

الخاصية الثانية للعلامة السوسيرية هي الخطية. يعتبر سوسير بأن هذه الخاصية التي لم يدركها اللسانيون قبله أبداً، لها من الأهمية ما لسابقتها. يقصد بذلك أن الملفوظ اللساني ـ والعلامة ـ يَجريان في الزمن، على خط الزمن. ويترتب عن ذلك نتائج أساسية فيما يخص استعمال اللسان: إن وحدتين لا يمكنهما أبداً أن توجداً في نفس النقطة من السلسلة الكلامية وموقعهما في هذه السلسلة يمكن أن يكون دائماً تمييزياً. هكذا يعيّن سوسير في سطور معدودة وجهة للأبحاث السميولوجية تتمثل في التمييز بين أنساق مثل اللغة حيث تتحقق العلامات في الزمن وبين أنساق أخرى، مثلما هو الأمر في الأنساق

البصرية، حيث تنتظم العلامات في الفضاء «على أبعاد متعددة»[13]: وهذا فرق تنجم عنه بالضرورة بنيات مختلفة للإرساليات التي تكونها هذه الأنساق. (قد لا يكون من نافل القول الإشارة إلى أن القرن الثامن عشر، المتعدد الاختصاص إلى حد كبير في كل شيء، سبق له أن اقترح بقلم ليسينغ Lessing سنة 1766 (الفصل 16 من كتاب *Laocoon*) تحليلاً سوسيرياً نموذجياً يعارض فيه بين اشتغال فن الرسم حيث «تتعايش» الأشياء وبين اشتغال الشعر، مجال «التتابع» انطلاقاً من اعتبار أن «فن الرسم يستعمل في محاكاته وسائل أو علامات مختلفة كلية عن الشعر من حيث إنها صور وألوان مجالها هو الفضاء، وأن تلك التي يستعملها الشعر هي أصوات منطوقة مجالها هو الزمن»).

تكمن السمة الثالثة المحددة للعلامة السوسيرية في طابعها المنفصل (*discret*). لا نجد هذا اللفظ عند سوسير، ولكنه استعير لاحقاً من المصطلح الرياضي حيث يتعارض ***منفصل***، وهو مرادف ***متقطع***، مع ***متصل***: فالكميات المنفصلة تتعلق برياضيات مختلفة عن الكميات المتصلة. أما سوسير فيقول بأن العلامة اللسانية اختلافية (***المحاضرات***، ص 163 ***الأصول***، ص 259)، مما يعني أنها تشتغل بحضورها أو بغيابها التامين، باعتبارها وحدة منفصلة وليست كمية متصلة: مثلاً تعني علامة *cheval* «*cheval*» وليس«*cheval* على وجه التقريب» مثلا: فهي أولا هذه العلامة في تعارض مع كل العلامات

13 - cf. G. Mounin, Les systèmes de communication non-linguistiques et leur place dans la vie du xxe siècle, dans BSL, tome LIV (1959), fascicule 1, pp. 176-200.

الأخرى. وهـذا هـو ما يقصده سوسير عندمـا يقول بأن العلامة «كلها سلبية واختلافيـة» (*الأصول*، ص 66): إن لفظ *cheval* يقصي أولا بحضوره كل مدلولات اللسان التي هي ليست مدلول «*cheval*» في شموليته.

يمكننا أن نتصور نظاماً تواصلياً إنسانياً يتكون من وحدات اعتباطية وخطية، لكنها غير منفصلة جزئياً: في هذا النظام مثلاً، قد تحيل لعبة بكاملها من التدرجات المستمـرة لهذا الفـونيم أوذاك المكـون لـ *Svall* / مثلاً إلى تنويعات في الـوزن (بالنسبة لـ S)، والسرعة (بالنسبة لـ v)، والتدجن (بالنسبة لـ a) والجمال (بالنسبة لـ l)، بحسب التغييرات الحاصلة في الشدة والحدة والمدة لكل فونيم. وهذا ما يحصل جزئياً في معالجة الخط الإيقاعي للملفوظات التي ننطق بها، حيث إن «تغييراً موازياً وتناسبياً في التصويت يحدث تغييراً في الإرسالية المراد نقلها»[14]، بحسب كلام مارتيني، وذلك عندما يقع النبر مثلاً على *im* لكلمة *impossible* بقوة تجعل المتكلم يرغب في الإشارة إلى درجة علياً من الاستحالة.

هـاتـه الخاصيـة الاختـلافية للعلامة يـوضحها أيضاً سوسير من خلال مفهوم «القيمة» حيث يتكون الجـزء المفهومـي [للعلامة] من روابـط واختلافـات مـع الألفاظ الأخرى للسـان» (مع، ص 16). أخيراً إن هذه الخاصية الاختلافية للعلامات هي بالذات ما يجعلها تشتغل من

---

14 – cf. A. Martinet, C. R. de Manfred Sandmann, dans BSL, tome LIV, 1959, fascicule2, pp. 42-45.

خلال ***تعارضها*** مع بعضها البعض. وقد كتب سوسير في هذا المجال: «لا تعمل القيم إلا بواسطة تعارضها المتبادل داخل نسق محدد» (**مح**، ص 165)؛ كما كتب أيضاً: «الآلية اللغوية كلها [...] تعتمد على تعارضات من هذا النوع وعلى الاختلافات الصوتية والمفهومية التي تتضمنها (ن.م. ص 167).

إن الإختلاف الصوتي بين«pardon »/ pardō / و «lardon» /lardō/ الذي يعتمد على الاختلاف بين الجزأين الأوليين /p /و/l/ هو اختلاف تعارضي: يكفي وحده للتمييز بين الدالين والإشارة إلى أنهما يعارضان بين مدلولين مختلفين.

ويتلازم مع هذه الخاصية الاختلافية للوحدات اللسانية صياغة سوسيرية أخرى (لأن سوسير، وهو المنشغل كثيراً بالتدقيق الاصطلاحي كما لاحظنا، هو الذي أدخل مصطلح **وحدة** التي عوض بها ***طرف*** أو ***كلمة***، وذلك بغية تجنب أي افتراض مسبق وضمني حول طبيعة الأجزاء التي يحاول عزلها وتحديدها): «فالعلامة لها طبيعة غير مادية» (***الأصول***، ص 67) و«ما يشكل اللسان هو العلاقة التي يقيمها الذهن بين الإشارات» (ن.م. ص 54). «يمكن اعتبار مادة هذه الإشارات في ذاتها غير هامة» (ن.م). لهذا السبب «فاللسان شكل [أي شبكة من الروابط] وليس مادة» (**مح**، ص157 و169).

في الأخير وبعد مناقشتها، اعتبرت هذه النظرية السوسيرية للعلامة بديهية لكونها تُذكر بالنظرية الأرسطية القديمة للعلامة المشتغلة اتفاقاً بين الناس (*thései*) لا طبيعة (*phusei*)، ولكونها

تستدعي نظرية العلامة عند وايتني المتسمة بالاعتباطية والاتفاقية والاجتماعية. وقد كتب سوسير ما يلي: «إن مبدأ اعتباطية العلامة لا يعترض عليه أحد» (مع، ص 100). وفيما يخص هذه النقطة لم يتم إعادة النظر في اعتباطية العلامة بعد سوسير إلا من أجل تفسير كيف أن بعض العلامات اللسانية الموجودة جزئياً وبالتجربة في كل لغة لها دال يوحي بوجه طبيعي لمدلولها كما هو الأمر مثلاً في:

un frais parfum sortait des touffes d'asphodèles أو في *croquer* ،*craquer* الخ، وباختصار كل ما تسميه اللسانيات الأنجلو- سانكسونية، التي تعنى به بكيفية خاصة، الرمزية الصوتية للعلامات اللسانية *sound-symbolism*.

لكن سوسير نفسه نبه بأنه إذا كان «وايتني ألح كثيراً، عن حق، على الطابع الاعتباطي للعلامات [...] فإنه لم يذهب بعيداً في ذلك» (***المحاضرات***، ص 110).كما أن ***المدونات*** (ص 59-60) تعبر عن نفس الفكرة منذ 1894. وفيما يتعلق باعتباطية العلامة التي «لم يتعب وايتني أبداً من ترديدها للتحسيس أكثر بأن اللغة مؤسسة خالصة» («تتساوى كلمتا *cow* و*vacca* في تعيين بقرة ما»)، يضيف سوسير: «لكن هذا يدل على الكثير من الأشياء».

وفي الغالب ما لم يُقبل ولم يدرك مباشرة هو هذا ***الذهاب إلى أبعد الحدود*** المميز لسوسير وبالضبط هذه الفكرة: تنطبق اعتباطية العلامة كذلك على حقيقة أن كل لغة «تقطع» الواقع غير اللساني،

سواء كان صوتياً أو مفهومياً، بكيفية خاصة بها وبشكل اعتباطي:/r/ الأسناني و/R/ اللهوي (الراء والغين) هما فونيمان في العربية أي أنهما يصلحان للتمييز بين أزواج من الكلمات، ولكنهما ليسا سوى فونيم واحد في الفرنسية. كما أن *mouton* في الفرنسية تطابق، بعلامة واحدة، واقعين اثنين ثعينهما الإنجليزية بعناية وبكيفية متمايزة: *mutton* و*sheep* الخ.

وقد أدت النزعة السوسيولوجية لمايي ثم ماركسية مارسيل كوهن إلى مناقشة مفهوم الاعتباطية. ويعطي هوليمان Hollyman هنا دون شك الصياغة الأكثر وضوحاً فيكتب: «إن التطابق [بين الدال والمدلول] ليس طبيعياً ولا اعتباطياً ولكنه اجتماعي وهو ليس اتفاقياً بل إنه عملي. كل كلمة لها حقل معنوي مركزه وأساسه يتكون من تصور واقع مادي أو اجتماعي. وطبيعة هذا المفهوم تتحدد عن طريق الممارسة الاجتماعية (**المعجم الفيودالي**، ص 13).ومما هو مفارق أن الأمر يتعلق هنا بمجرد خصام اصطلاحي حجب عن الماركسيين الطابع الدياليكتيكي العميق للفكر السوسيري الذي سموه عن خطأ بالمثالية.

لكن النقد الفرنسي الذي يكشف أكثر عن الصعوبات التي صادفتها السوسيرية هو، دون شك، ما عبر عنه بنفينست في مقاله «طبيعة العلامة اللسانية» (*acta_linguistiqua*،I،1939 الذي أعيد نشره في *problèmes* ص 49-55). ورغم أن سوسير حظي في نهاية المطاف بالتحية والتمجيد، فاعتباطية العلامة صيغت هنا بكيفية أفرغتها من معناها وعارضتها في العمق.

حاول بنفنيست أن يبين بأن ما هو اعتباطي هو العلاقة بين الدال [bøf] أو [oks] والواقع غير اللساني «*boeuf* ». ولعل هذه العلاقة غير مقبولة في اللسانيات بسبب إدخال علاقة جديدة بين الشيء والدال عوضاً عن العلاقة السوسيرية بين المفهوم والدال (سكت بنفينست عن العلاقة بين الشيء والمفهوم وعن العلاقة بين المفهوم والمدلول). كما يضيف بأن القول باعتباطية العلاقة بين الشيء والدال «هو أمر صحيح بل صحيح أكثر من اللازم مما يعني أنه قليل الإفادة» (مقال مذكور، ص 51). عكس ذلك، قد تكون العلاقة بين «المفهوم (المدلول») والدال علاقة غير اعتباطية (ص 54)، «وحدة جوهرية» (ص 52)، «وحدة» ص51). «إن الإختيار الذي يستدعي هذه القطعة السمعية (*bøf* على سبيل المثال) لهذه الفكرة (« *boeuf* ») ليس اعتباطيا قط؛ فهذه القطعة السمعية قد لا توجد بدون الفكرة المطابقة لها، والعكس صحيح» (ص 54). إن مقال بنفينست وحده قد يتطلب تفسيراً تاريخياً وفلسفياً وميتافيزيفياً مسهباً حتى نفهم سبب عدم فهمه لسوسير عام 1939.

وعندما يختم بأن «العلامة، وهي عنصر أساسي للنسق اللساني، تضم دالاً ومدلولاً ينبغي أن نعترف بكون رابطهما ضرورياً، وأن هذين المكونين يحل أحدهما في الآخر» (ص 55)، يبدو بالفعل أنه لا يقول شيئاً آخر غير ما قاله سوسير عندما نبهنا هو نفسه بأنه «إذا كان الدال بالمقارنة مع الفكرة التي يمثلها يظهر على أنه اختير بحرية، فإنه مقابل ذلك ومقارنة مع المجموعة اللسانية التي تستعمله هو غيرحر. إنه مفروض» (*المحاضرات*، ص 104).

8 ـ مفهوم النسق

إن مفهوم النسق قديم جداً في اللسانيات ويعود، بكل تأكيد، إلى النصف الثاني من القرن 18 على الأقل. ففي هذه الحقبة كانت تدل كلمة نسق التي أتت من المعجم التقني للفلاسفة والرياضيين، (1632، غاليلي Galilée: *Dialoghi dei massimi sistemi del mondo*) على نفس المعنى الذي وردت به عند أنطون مايي، أي كل «مجموعة من الأشياء المترابطة فيما بينها»، وكل «ما هو مكون من أجزاء مترابطة مع بعضها البعض»، وهو ما سيشكل التعريف الذي سيأخذه ليتري Littré قرنا بعد ذلك ثم بعده المعجم التقني والنقدي للفلسفة لـ أندري لالاندA. Lalande (1926).

نتحدث عن النسق الفلكي ثم النسق العصبي والنسق العضلي والنسق السياسي. وقد سبق لجيمس هاريس James Harris أن كتب منذ1751، وهو النحوي الأكثر بروزا في القرون الكلاسيكية، في كتابه *Hermes or a philosophical inquiry concerning universal grammar* «بأنه يمكن، في نهاية التحليل، تحديد اللغة على أنها نسق من الأصوات المنطوقة، وعلامات أو رموز لأفكارنا، ولكن لتلك الأفكار التي هي عامة أو كونية أساسا» (ترجمة ف. تيرو F.Thurot، ص 337، 1796). أما تيرو نفسه فقد كتب بخصوص اللغة في ***الخطاب التمهيدي*** لترجمته، الذي هو تاريخ حقيقي للنحو، بأنها «نسق حيث يترابط الكل» وحيث «تقدم كل الأجزاء سندا متبادلا لبعضها البعض» (ن.م).

ومنذ 1816 مع كتاب بوب Bopp: *conjugations system* الذي أسس النحو المقارن، أصبحت كلمة نسق كلمة مفتاحاً للسانيات الناشئة بمعنى لعلّه أقل وظيفية مما نجده عند هاريس ولكنه أكثر تصنيفية: حيث نتحدث عن «نسق أزمنة الفعل» (لكن مع ليني Linné كانت كلمة نسق قد انتقلت من معنى المجموعة إلى معنى المجموعة المصنَّفة، إلى التصنيف).

إذن، لم يُدخل سوسير لا كلمة ولا مفهوم النسق إلى اللسانيات. لكنه سيجعل من مصطلح وصفي بالأساس، بل استعاري إلى حدٍ ما، مصطلحاً إجرائياً له مكانة مركزية في نظرية اللغة.

ظهر عنده هذا المصطلح منذ ***البحث حول النسق البدائي للمصوتات الهند أوروبية*** سنة 1878. ففي هذا الكتاب، وبكل وضوح، نجد لهذا المصطلح المعنى الذي كان له في اللسانيات التاريخية آنذاك. نسق المصوتات الهند أوربية عند شليشر Schleicher أو عند كورتيوس Curtius مثلاً هو اللوحة أو الرسم التوضيحي (الكلمتان موجودتان عند سوسير) لقواعد التطابق التي تفسر الانتقال من حالة (لسانية) إلى أخرى في تطور الأصوات الصائتية (كتاب مذكور، ص 2) هكذا نجد:

في الهند أوروبية	A	ä
في الأوروبية	a e	ä
فيما بعد	a o e	ä

لكن النسق له أيضاً، بكيفية ضمنية في *البحث*، المعنى الذي سيأخذه في *المحاضرات*: معنى مجموع العلاقات التي تحدد الوحدات بتعارضها (يتعلق الأمر هنا بالمصوتات) في حالة لسانية معينة، في السانكرونية. هكذا، وصل سوسير إلى طرح وجود *A التي اشتهر بها كما بينا ذلك أعلاه.

تظهر كلمة نسق في المحاضرات 138 مرة[15]. لكن سوسير يستبعد كلمة بنية بصفتها مرادفاً لنسق، فهو يستعملها قليلاً (المحاضرات، ص180، 244، 256). ثم يجدها غامضة حتى للتعبير عما نسميه بنية أو بناء الكلمة، وهو المعنى الوحيد الذي يستعملها به.

عكس ذلك، يستعمل سوسير كذلك كلمة **آلية** اللسان ثلاث عشرة مرة وكلمة **جهاز** اللسان إحدى عشرة مرة: وهما استعمالان عتيقان، أولهما متأصل في القرن الثامن عشر، والثاني هومبولدتي جداً (نسبة إلى هومبولدت) أو يرجع إلى بداية القرن التاسع عشر.

كل أولئك الذين عرفوا سوسير وتحدثوا عنه سجلوا بأن في كيفية تفكيره وطريقة عرضه شيئاً شاعرياً ـ وهذه اللمسة مدهشة بما فيه الكفاية للقارئ المعاصر المتأثر على الخصوص بصرامته المسلّم بها إلى حد ما والتي تلون فكره بأجمعه. غير أننا إذا توقفنا مرة واحدة معتبرين الاستعارات والتشبيهات التي يستعملها سوسير لتوضيح جدة

---

15 cf. G. Mounin, La notion de système chez Antoine Meillet, dans La Linguistique, 1996, 1, pp.24 et ss.

تحليلاته سنندهش من نوعية ابتكاراتها العجيبة ومن فعاليتها أيضاً. لنفكر على سبيل المثال في الطابع المباشر لصورة الورقة للإيحاء بالارتباط البنيوي الذي لا يمكن فصمه بين دال اعتباطي ومدلول اعتباطي (انظر أيضاً صورة القطار السريع جنيف - باريس لتوضيح حقيقة كون اللغة شكلاً، لا مادة، **المحاضرات** ص 151).

يستعمل سوسير في أربع مناسبات تشبيه اللسان بلعبة الشطرنج قصد جعل مفهوم النسق وجدته الجذرية في اللسانيات ملموسين عن كثب، لكنه لا يخفي محدوديته الاستعارية (ص 127).

«إن اللسان نسق لا يعرف إلا نظامه الخاص، وتشبيهه بلعبة الشطرنج يوضحه [...] إذا عوضت قطع الخشب بقطع من العاج، فالتغيير لا يكون ذا أهمية بالنسبة للنسق. لكن إذا نقصت أو زدت في عدد القطع فإن هذا التغيير يصيب نحو اللعبة grammaire du jeu بعمق» (*المحاضرات*، ص 43) بفضل هذه الصورة، يوضح جيداً حقيقة أن قيمة القطع (أو العلامات اللسانية) غير مرتبطة بمادتها (الخشب، العاج، الخ) ولكنها مرتبطة فقط بعلاقاتها مع بعضها البعض (قواعدها الموقعية ثم الانتقالية ثم قواعد عملها المتبادل). وباستعادته لهذا التشبيه بُعَيد ذلك (ص 153،154)، يبين بأن شكل القطع نفسه (أو العلامات) هو أقل أهمية مما قد نسميه اليوم وظائفها (لكن سوسير لا يلجأ إلى هذا المفهوم): فهو يوضح بأن فارس اللعبة، في مادته وشكله، ليس في الحقيقة سوى علاقاته مع القطع الأخرى وبأنه إذا دُمر أو أتلف خلال

اللعبة فيمكن تعويضه بأي شيء، ذي مادة وشكل مختلفين، يرمز إلى نفس العلاقات. إن القطع (العلامات) ليس لها قيمة، أولا، بمادتها ولا حتى بشكلها إذ لا يكون للشكل أهمية إلا لأنه يتعارض مع الأشكال الأخرى للدلالة على علاقات أخرى (مح، ص 125-127 و149). فالقيمة الملازمة للقطع متوقفة على موقعها [الأول] في الرقعة، مثلما أن لكل طرف في اللسان قيمة تتعارض مع كل الأطراف الأخرى. (ص 125-126).

هناك إذن نسق ما لأن الوحدات مختلفة، ولكن فقط عندما تعارض هذه الاختلافات بين الوحدات لتشير إلى قيم متمايزة. في الفرنسية، يمثل كل من [r] الذي يتحقق بارتجاج لساني و[R] المتحقق بارتجاج لهوي و[R'] المتحقق باحتكاك طبقي عميق وحدات مختلفة بمادتها وشكلها الصوتيين. لكن هذه الإختلافات ليست لها قيمة تعارضية. إن كلمة *rire* المنطوقة [rir] أو [RIR] أو [R' IR] تحيل دائماً إلى مدلول واحد. وعكس ذلك فـ/P/ لـ poule تتعارض مع/b/ لـ boule. لأن اختلافهما الوحيد (عدم ارتجاج الحبلين الصوتيين بالنسبة لـ /P/) يكفي للإشارة إلى اختلاف المدلولين المطابقين. كما أن /p/ تتعارض مع /f/ لأن اختلافهما (/p/ شفتانية و/b/) شفوية-أسنانية) يكفي لتمييز (*poule*) عن *foule* - كما تتعارض كذلك مع /t/ *Toul* ومع K = *coule* ومع m = *moule*، ألخ. إن مجموع هذه العلاقات التعارضية - بين /p/ وكل الفونيمات التي قد تحل محله، وبكيفية أعم العلاقات التعارضية من نفس النوع التي تقيمها فيما بينها كل الفونيمات- هي التي تكون النظام الفونولوجي للفرنسية مثلا.

النسق إذن موجود لأن كل هاته العلاقات التعارضية متوقفة على بعضها البعض، حسب التعريف نفسه. لنأخذ مثالاً آخر من مجال المعجم. لقد ظهر في فرنسا حوالي 1809 نوع من الناقلات له عجلتان كبيرتان وبدون جهاز دواس يسمى دراجة *vélocipède*. هاته الكلمة التي ظلت مسجلة على أنها عتيقة في [قاموس] ليتري *littré* سنة 1880، لم تكن لتتعارض إلا مع الأسماء الأخرى للناقلات. لكن القواميس تذكر حضور *vélo* في نهاية القرن التاسع عشر. فالتعارض بين المصطلحين اللذين يمثلان نسقا فرعيا، مَهما كان تكونه غير معروف، هو إذن ذلك الذي يحيل لا إلى مرجعين مختلفين، بل إلى سجلين متمايزين للغة هما الفرنسية الفصحى متعارضة مع اللغة المألوفة.

لكنه في نفس الفترة أيضاً، اغتنى النسق الفرعي باقتباس عن الإنجليزية هو *bicycle* الذي يعين شيئاً مختلفا عن *vélocipède*، فأصبح التعارض بين المصطلحين من نوع شيء عتيق ~ شيء حديث. وبسرعة كبيرة ظهر مصطلح رابع هو *bicyclette* الذي سيزيح *bicycle* عن مكانه ثم يقصيه. لكن *vélo* سيتغير مكانه أيضاً في النسق ولم يبق *vélocipède* إلا بقيمة أدبية عتيقة - ساخرة لـ*bicyclette*، وسيتشكل التعارض بين *vélo ~ bicyclette* على أساس أنه تعارض بين سجلين: فصيح ~ مألوف.

وسيتغير هذا النسق المعجمي الفرعي ذو الأطراف الثلاثة دائماً في نفس الفترة بدخول وحدة رابعة منبثقة كلية عن نسق معجمي

مجاور لتندمج في نسق *bicyclette*. يتعلق الأمر بـ*bécane* التي كانت تعني، حوالي 1870 فقط، أية آلة قديمة والتي أخذت في نسقها الجديد القيمة المطلقة لـ*bicyclette* في السجل الشعبي مصحوبة، دون شك بكيفية ساخرة، بشيء من استعمالها القدحي القديم الذي كان لها في النسق الآخر. ولا يبدو أن المكانة التي تركتها شاغرة في النسق المعجمي لتسميات الآلات قد مُلئت، على الأقل بالنسبة للفرنسية الفصحى (في حين أن مفهوم الآلة القديمة في النسق المعجمي للناقلات ذاتية الحركة وحدها قد جذب نحوه مصطلحات *bagnole*، *guimbarde*، *tacot*، *coucou* الخ..التي انبثقت كلها عن أنساق معجمية أو أنساق معجمية فرعية أخرى).

بهذا المعنى يتضمن مفهوم النسق مفهوم القيمة: «اللسان نسق من القيم الخالصة ولا شيء يحدده بعيدا عن الحالة المؤقتة لأطرافه» (***المحاضرات*** ص 116): إن وجود *vélo*و*bécane* من جهة أولى، و*tricycle* و*vélomoteur* و*mobylette* و*motocyclette* و*vespa* من جهة أخرى هو الذي يعين اليوم الحدود الدقيقة لمدلول لفظ *bicyclette* (لاستعمالاته إذن) والعكس صحيح.

تظهر أصالة مفهوم النسق السوسيري في اللسانيات خصوصاً لأنه يكف عن اعتبار تصنيفات ظواهر ملحوظة على أنها معطاة سلفاً (بحكم طبيعة الأشياء): نسق المصوتات والصوامت وأزمنة الفعل الخ، ليصبح (النسق) الأداة الشاملة لتحليل لساني

موحد. وعوض أن يكرر سوسير بأن اللسان نسق حيث كل شيء مترابط معتبرا ذلك أمراً بديهيا، يتساءل عن سبب وكيفية «ترابط الكل» مما يقوده إلى عمق اشتغال النسق اللساني بفضل مفاهيم الاختلاف والتعارض والقيمة والمادة والشكل التي حضّرها ـ وهي مفاهيم إجرائية بدون استعمالها يكون مفهوم النسق "كليشيها" بدون وزن كبير ومرادفاً للتصنيف كيفما كان.

وبشكل عام، استقبل مفهوم النسق السوسوري استقبالاً جيداً من طرف معاصريه والتابعين المباشرين له. لكن ما استقبل هو الصياغة القديمة للقرن الثامن عشر والتاسع عشر: فكرة النسق، إما باعتباره لوحة من قواعد التطابق الدياكرونية، وإما بصفته تصنيفاً لعناصر لا تدرس علاقاتها لأنها تعتبر بديهية.

من هنا جاءت هذه الفكرة التي أعلن عنها مراراً وهي أن *المحاضرات* لا تضيف في هذا الصدد شيئاً جديداً في العمق. هنا كذلك، يعكس مارسيل كوهن بإخلاص الفكر الباريزي عندما يكتب: «من هو أول من تحدث عن اللغة باعتبارها نسقاً ثم عن نسق الأنساق؟ من الذي نطق وكتب في البداية كلمة بنية؟ يمكن للمؤرخين أن يبحثوا عن ذلك. ما هي الكيفية التي تبلورت بها أفكار سوسير عندما كان يدَرس في باريس بمدرسة الدراسات العليا، كيف كان التفكير الخاص لمايي، تلميذه الناشئ وخليفته مبكراً؟ لعل بعض المذكرات التدريسية والرسائل والذكريات المحفوظة يمكنها أن تقول شيئاً عن ذلك.

وبصفتي أنا نفسي تلميذاً لمايي منذ 1903، يبدو لي أن مفهوم النسق قــد أعطــي لــي منذ البداية مرتبطاً بقوة بالتعليم اللساني أجمعه» (ص 64 Dans Recherches… Linguistique et idéalisme).

في الحقيقة و لانعدام التعمق، فإن المفهوم السوسيري لم يُستوعب على حقيقته والدليل على ذلك أنه لم يكن منتجاً فيما يخص التحليل اللساني إلا عندما أعطاه تروبتسكوي ومدرسة براغ معناه الكامل في بناء الأنساق الفونولوجية (أنظر تروبتسكوي، ***المبادئ***، ص 68).

9- الفونيم

يمكننا أن نكتب بأن سوسير هو سبب ظهور مفهوم الفونيم دون أن يعني ذلك بأنه هو الوحيد في هذا الباب. ظهر هذا المصطلح عند دوفريش ديجينيت (Dufriche-Desgenette) سنة 1873، والمفهوم الحالي الذي يطابق هذا المصطلح موجود في كتاب وينتلر wintler واصف لهجة سويسرية سنة 1876: هذا الكتاب الذي أعاد اكتشافه تروبتسكوي واحتفل به كان موجوداً في خزانة سوسير.

في سنة 1877، هيأ عالم الأصوات الإنجليزي سويت sweet قواعد كتابة صوتية أدت إلى عزل الأصوات التي ***بإمكانها أن تميز كلمة عن أخرى*** من بين الأصوات الصغرى للغة ما. وقد تمت الإشارة سابقا إلى الروابط الثقافية بين سوسير وكروشفسكي kruszewski وبودوان دوكورتني منذ 1880 -1881، وهي روابط ذات مصلحة متبادلة وتفاهم علمي يقظ: قدم كروشيفسكي منذ 1880 عرضا عن ***بحث*** سوسير، وحوالي1908 كتب سوسير (أنظر ***الأصول***، ص51) بأن هذين الروسيين .كانا أقرب من أي شخص آخر، إلى رؤية نظرية للغة، هذا دون الخروج عن الاعتبارات اللسانية الخالصة.، ويتأسف لكونهما .مجهولين من طرف عامة العلماء الغربيين..

وقد اتبع جيسبرسن منذ 1904 مذهب سويت؛ كما أن السويدي نورين Noreen وضع في بؤرة التحليل اللساني مفهوم «الصوت المحدّد بكيفية نوعية» والذي ليست بدائله الصوتية «مستغلة [من طرف لغة معينة] لغايات لسانية» «وإن كانت جد متمايزة أي أنها غير مستعملة باعتبارها حاملة

لاختلاف دلالي ما» (فيما يخص كل هذه النقط، أنظر دي مورو المتصف بالشمول ص 307-308 و352-360).

غير أن ما ينبغي تسجيله هنا هو أن الأمر يتعلق بمتقدمين أعيد اكتشافهم جميعاً بعد أن فات الأوان. زد على ذلك أنها ظاهرة قديمة في تاريخ العلوم. لقد أعيد اكتشافهم بعد 1929 وبعد أن ثـمّن تروبتسكوي، لتأسيس فونولوجيته، التعليم والدعم اللذين وجدهما عند سوسير. لأن تروبتسكوي يؤكد صراحة في *مدوناته* الأوتوبيوغرافية بصدد محاضرة ألقاها عن شاخماتوف Chakhmatov بأنه منذ 1915-1916 «انضاف تأثير مدرسة فردناند دوسوسير دون تأخر [ولو بكيفية خاطئة من طرف البعض] [..] إلى النقاشات التي كان يثيرها» (*المبادئ*، ص29).

ويوضح جاكبسون (ن.م. ص 28) بأنه حوالي 1928- 1929 «بينما كان تروبتسكوي [يطور أكثر فأكثر أبحاثه النظرية والتطبيقية في مجال التحليل الفونولوجي] كان يَدرس أعمال السابقين في الفونولوجيا وخصوصاً أعمال سوسير وبودوان دوكورتني». وفي نص *المبادئ* نفسه، يذكر اسم سوسير منذ الصفحة الثانية (أنظر أيضاً ص 4 و5). وحتى لو اعتقدنا بأن الأمر غير كائن بقدر ما هو ممكن (أنظر ص 46)، فمن المؤكد أن الفكر السوسيري شكل بكيفية عميقة العرض النظري لتروبتسكوي ومصطلحاته. ولإثبات ذلك، تكفي تعابير رئيسية مثل: «يتكون دال اللسان من كمية من العناصر يكمن جوهرها في أن بعضها يتمايز عن بعضها الآخر» (ص 11)، أو «تفترض فكرة الاختلاف فكرة التضاد»(ص 33).

لكن إذا كان التتابع واضحاً بين سوسير والفونولوجيا فهو غير مباشر بل وبكيفية مفارقة: لأن ما قاله سوسير عن الفونيم ذاته ليس هو ما مثل نقطة

الانطلاق للتفكير الفونولوجي. أولاً، تختلف مصطلحاته كلية عن مصطلحاتنا: فالفونتيكا عند سوسير تعني دائماً الفونتيكا التاريخية، أي الفونتيكا الدياكرونية. ويطلق سوسير اسم الفونولوجيا على ما نسميه نحن اليوم الفونتيكا (الوصفية أو التمييزية أو حتى العامة).كل الفصل الذي يخصصه للفونولوجيا (*المحاضرات* ص55-61) والتذييل الوافر للفصل السابع من المقدمة (مبادئ الفونولوجيا ص63-95) لا يعالج الفونولوجيا بمعناها الحالي بل الفونتيكا.

يستعمل سوسير إذن في الفونتيكا الخاصة به مصطلح ومفهوم الفونيم. لكن الفونيم عنده هو الصوت المادي، فهو يكتب: «النسق الفونولوجي للهجة المدروسة [...] أي لائحة الأصوات التي يستعملها: كل لسان يشتغل، بالفعل، على عدد معين من الفونيمات الاختلافية» (*المحاضرات*،ص 58). لكن الفونيم مع ذلك ليس بالنسبة إليه هو بالضبط مجموع الصوت المادي: «نطق كلمة ما، [فعلا] مهما كانت صغيرة، يتكون من حركات عضلية لا تحصى [...] [لكن] كل صورة سمعية ليست [...] سوى مجموع عدد محدود من العناصر أو الفونيمات» (ص 2 3). قد لا يكون الفونيم بالنسبة إليه إذن سوى «الصورة السمعية» المطابقة لصوت مادي معين. يقول: «لا يمكن تحديد أصوات سلسلة كلامية إذن إلا بالاعتماد على الانطباع السمعي» (ص 65). لكنه يتعثر دائماً في كيفية استخراج وتحديد ما يميز الصورة السمعية عن الصوت المادي المطابق لها.

وفي مقابل دقة الأوصاف الفونتيكية للأصوات التي أصبحت مضبوطة أكثر فأكثر بفضل الفونتيكا التجريبية، يطرح ضرورة «الاهتمام فقط بالطابع التمييزي» الذي يعارض الصور السمعية للأصوات مع بعضها البعض (ص

66) مثلما يفعل ذلك كروشفسكي وبودوان (ص 66)؛ كما ينفي اعتراضات من يسميهم «بعض اللسانيين المنكبين على المجهر الفونولوجي» [أي الفونتيكي] (ص 302). لكن ما هي كيفية إمساك وعزل هذا الطابع التمييزي؟ يقول بأنه ينبغي «إهمال التلوينات غير الهامة من حيث الجانب السمعي» (ص 66) لكنه لا يعطي مقياساً لتحديدها. أو يقول كذلك: «ما دام لنا الانطباع بشيء متجانس فالصوت وحيد» (ص 64). ويقول أيضاً: «في الفعل التصويتي لا نأخذ بعين الاعتبار إلا العناصر الاختلافية البارزة بالنسبة للأذن والقابلة لأن تصلح لتحديد الوحدات السمعية في السلسلة الكلامية» (ص 83).

لكن ما هي كيفية اختيار هذه العناصر المحددة ذاتياً على أنها بارزة بالنسبة للأذن.؟ نلمس عن كثب، في كل مرة يوضح فيها مسعاه بأمثلة، العائقَ النظري الذي لا ينجح في تجاوزه: فهو يعرف مثلاً بأن الفرنسية من وجهة النظر الصوتية، لها «كاف K ورائي مثلاً في *court* و كاف *K* أمامي مثلما هو في *qui*» (ص 72)، حيث تكون الاختلافات النطقية (والسمعية «البارزة للأذن») أو ينبغي أن تكون، من الناحية الفيزيقية، واحدة بالنسبة لجميع الناس. والحال أنه «في كثير من اللغات لا سيما في الهند أوروبية، نميز بوضوح بين نطقين طبقيين [الظهري - الحنكي ل *qui* والظهري اللهوي لـ *court*] [..] لكنهما مهملان في لغات أخرى مثل الفرنسية» (ص 72). لماذا؟ لا يجيب سوسير عن ذلك، وقد يكون هو الحلقة الجوهرية في الاستدلال الفونولوجي الذي كان قد صيغ بكيفية أفضل بمصطلحات لسانية خالصة مع كل من سويت ونورين وجسبرسن («التمييز بين كلمة وأخرى» «حاملة لاختلاف دلالي»)؛ بينما يقف سوسير، على غرار كروشفسكي وبودوان، عند

مقاييس نفسية («الانطباع بوجود شيء متجانس» «عناصر بارزة بالنسبة للأذن»).

إن كتاب سوسير غني بأمثلة من هذا القبيل إلى درجة تجعلنا قاطعين بهذا الخصوص: هو يسجل مثلاً بأنه «يوجد في اللغات الإسكندنافية ميم m مهموسة بعد [فونيم] مهموس». نجد ذلك أيضاً في الفرنسية، مثلاً في *enthousiasme*، بينما الميم *m* في *Palme* مجهورة، ويستدرك سوسير قائلا بأن «المتكلمين [الفرنسيين] لا يرون فيها عنصراً اختلافياً» (ص 72). لكن لماذا؟ نفس الاستدلال دائماً بالنسبة لـ V الأنفية في *inventer*: «لكن [الفونيم] الاحتكاكي الأنفي عموماً ليس صوتاً يكون اللسان على وعي به» (ص 74)، أو بالنسبة للام المهموسة L *pluie* والمجهورة لـ *bleu* والأنفية لـ *branlant* التي لا تشكل في الفرنسية ثلاثة فونيمات ولكنها فونيم واحد، لأننا «لا نعي الاختلاف» (ص 74)؛ نفس الشيء أيضاً فيما يخص الراء الفرنسية *r* الملثوغة (*grasseyé*) والمكررة *roulé* (ن.م)؛ ونفس العجز يظهر، في الاتجاه المعكوس، وهو يبرر لماذا «تميز كثير من اللغات [..] درجات متعددة من الانفتاح» (*aperture*)، تجعل في الفرنسية من [الفونيم] المفتوحɛ والمغلق لـ [كلمتي] *piquait* و*piqué* ومن [الفونيم] المفتوح والمغلق لـ [كلمتي] *mort* و*maure* فونيمات متمايزة (ص 76). وما يحيّر أكثر هو أن سوسير لا يذكر عندما يعالج [فونيم] /a/ التعارض الخلافي بين /a/ الأمامية الموجودة في patteو/α/الورائية الموجودة في pâte (ص 76).

وعلى الرغم من امتلاكه مفهوم الفونيم "التأليفي" (*phonème combinatoire*) (ص 79) الذي يشرح كثيراً من هذه الأمثلة في الفرنسية (تلك التي تخص فونيمات k وm وn وا) فإنه لا يستنتج منها شيئاً لفهم

الفرق بين التنويعات التأليفية لنفس الفونيم (k وm وng وا في الفرنسية) وبين وجود فونيمات مختلفة ([فونيم] *k* الأمامي و[فونيم] *k* الورائي في الهند أوروبية واللام ا المجهورة واللام المهموسة في لغة بلاد الغال. الخ..).

وعندما يتعلق الأمر بإبعاد العناصر الصوتية التي ليست لها قيمة تمييزية في صوت ما، فإنه يتحدث دائماً دون مقاييس عن «هذه الأصوات الخفية التي ليس لنا أن نعيرها الاهتمام والتي لا تعيق في أي حال تتمة السلسلة الكلامية» (ص 84)، أو عن «الأصوات الخفية والانتقالية» التي يمكن أن نلاحظها في مجموعة مثل ـ sn ـ؛ ويقول «لكنه ليس من اللسانيات في شيء أن نأخذها في الاعتبار، فالأذن العادية(؟) لا تميزها. ثم إن الأفراد المتكلمين بالخصوص هم دائماً متفقون على عدد العناصر» (ص 302-303).

لم يذهب سوسير أبداً إلى ما وراء هذا المقياس الهش المتمثل في وعي الأفراد المتكلمين وفي الإحساس اللغوي، أي المقياس السيكولوجي. لذلك، لم يخصص مثلاً تروبتسكوي في كتابه *المبادئ* سطراً واحداً لما قاله سوسير عن الفونيم.

ومع ذلك فكل العناصر الضرورية لتعريف الفونيم، كما ستقدمه مدرسة براغ بعد خمس عشرة سنة، موجودة مسبقاً عند سوسير الذي يوجد بين يديه كل هذه الأدوات التحليلية التي صنعها والتي ستستخدم بانتظام من طرف التابعين له: مفهوم الاختلاف ومفهوم التعارض ومفهوم القيمة ومفهوم النسق ومفهوم المادة ومفهوم الشكل. هذا التصور للفونيم الذي لم يستخلصه في فصوله «الفونولوجية» يعبر عنه نظرياً، في الفصل المخصص للقيمة بعد أن وضح هذا المفهوم بأمثلة لها صلة بالنقود

مستعملا الألفاظ التالية: «يَصدق هذا أكثر على الدال اللساني؛ إنه غير صوتي إطلاقاً في جوهره، إنه غير مادي ومكون ليس من مادته الهيولية، ولكن فقط من الاختلافات التي تميز صورته السمعية عن كل الصور السمعية الأخرى» (ص 164).

في هذا الموضع بالذات يقترب كثيراً من تحليل فونولوجي دقيق المثال: .هكذا في الفرنسية، لا يمنع العرف القائم على لثغ الراء *r* كثيراً من الناس من نطقها مكررة، واللسان لا يتأثر أبداً بهذا. إنه لا يقتضي إلا الاختلاف ولا يفرض، مثلما قد نتخيله، أن يكون للصوت صفة ثابتة. يمكنني أن أتلفظ [يضيف على نحو لافت للنظر] الراء الفرنسية *r* مثل ch الألمانية في *Bach*و*doch* الخ... بينما لا أستطيع في الألمانية استعمال *r* مثل *ch*، لأن هذه اللغة تفرق بين العنصرين وعليها أن تميزهما» (ص 165).

إلى هنا يكون التفسير المنفتح على الفونولوجيا المعاصرة هو الوحيد القادر على استخلاص نظرية الفونيم من الصياغات السوسيرية، حيث توجد بكيفية ضمنية ومختفية جداً. لكن سوسير يتابع: «ومثل ذلك أنه في اللغة الروسية لا يمكن قط للتاء t أن تتوسع لتحاذي 't (= التاء الحنكية[*]) (mouillé) لأن النتيجة ستكون خلط صوتين تفرق بينهما اللغة (أنظر *'gavorit*: «تكلم» [في صيغة المصدر] و*gavorit*، « يتكلم»). لكن سيكون ثمة حرية أكبر من جهة *th* (التاء النفسية *aspiré*) لأن هذا الصوت لم يتوقعه نسق الفونيمات للغة الروسية» (p.165). إنها المرة الوحيدة في **المحاضرات** حيث يوضح سوسير القيمة التمييزية لفونيمين من خلال استبدالهما، أي من خلال

*تتميز هذه التاء بارتفاع ظهر اللسان في اتجاه الحنك الصلب (المترجم)

وظيفتهما ليميز ويعارض بين وحدتين للمعنى قد تكونان متشابهتين في الحالة المعاكسة[16]. لو وضع في مركز تفكيره وتحليله ما يبدو أنه اكتشاف الصدفة ولو أحل مفهوم الوظيفة اللسانية الذي أدركه جيداً محل المفهوم الغائم للوعي اللساني، لكان سوسير مؤسس الفونولوجيا.

إن مشاكل قراءة *المحاضرات* التي يطرحها مفهوم الفونيم عند سوسير هي ما يجعلنا دون شك نعي على نحو أفضل الطابع اللامنتهي لنظريته.

إلى أي حد يرجع سبب هذا اللقاء غير المتحقق بين أستاذ جنيف والفونولوجيا إلى حياته القصيرة أو ربما حتى إلى تحريف ناشري المحاضرات اللذين لم يكونا مهيئين، رغم مواظبتهما، لإدراك هذا البناء الثوري؟ يظهر جيداً بأن السببين كانا معا حاضرين: لم يكن سوسير سنة 1913 قد انتهى من تأمل هذه النقطة، لكن الناشرين بسّطا وحجّراً فكره. ويسجل كوديل Godel في المحاضرات المخطوطة نزعة لتمييز أدق بين الأصوات الملموسة وصورتها (الفونولوجية) المجردة، زيادة على الرغبة في تجنب كلمة ***فونيم*** للإشارة إلى هذه الأخيرة (***الأصول*** ص 272).

عندما يكون بين يدينا كل الوثائق، بواسطة طبعة إنكلر Engler، سنستطيع تاريخياً دون شك إضفاء ظلال من التحوير على فكر سوسير بكيفية أفضل. لكن سيبقى دون شك أيضاً هذا المثال المذهل والمفيد والمفارق في تاريخ العلوم: في نظرية منسقة بكيفية دقيقة مثل تلك التي

16- نجد صياغة أكثر عمومية لكنها لم تتبلور أبدا بكيفية واضحة (ص 163): «ما يهم في الكلمة ليس هو الصوت نفسه، لكن الإختلافات الصوتية التي تسمح بتمييز هذه الكلمة عن كل الكلمات الأخرى لأنها هي التي تحمل الدلالة» وهي صياغة قريبة مما نجده عند سويت ونورين.

بقيت لنا عن سوسير، كل المفاهيم الكفيلة بتوجيهنا نحو نظرية للفونيم حاضرة وكل العناصر [الضرورية] لتعريف الفونيم مجتمعة، ومع ذلك لا نجد نظرية الفونيم وتعريف الفونيم. والمفارقة الأكثر إفادة هي أنه خلال عشر أو خمس عشرة سنة، مثلما هو الحال بالنسبة للرسالة المسروقة لإدغار بو Edgar poe، ظلت إمكانية نظرية وتعريف الفونيم معروضة في ***المحاضرات*** أمام أعين كل اللسانيين الذين قرأوها إلى أن انتبه إليها تروبتسكوي فأعطاها المكانة المركزية، وجعلها فجأة تظهر بديهية للجميع.

10ـ أثر سوسير

إذا ما اقتصرنا على العلامات الخارجية فإن أثر سوسير كان وما يزال هائلا. لقد قدم عنه دي مورو في بضعة سطور الجرد الأوفى الذي نستطيع الحصول عليه اليوم، مع أنه ما يـزال في نظره «ناقصاً أكثر منه وافراً» (ص 336 و *corso*، 334 - 347).

قدم كل اللسانيين الكبار المنتمين لهذه الفترة وغيرهم كثيرون، عروضاً عن الكتاب: جسبرسن ومايي وبلومفيلد وشوخاردت. لكن دي مورو نفسه سبق له أن أشار إلى أن هذه العروض الكثيرة، بالتأكيد، هي «عموماً وبالأحرى ذات طابع انتقادي» (ص *corso* ، 334). وأول موضوع للتأمل لكل من يهتم بتحولات انتقال المعرفة هو أن نرى كتاباً كبيراً مقروءاً على نطاق واسع، لكن فهمه يتم في البداية من الناحية التي هو مخطئ فيها أو ما نعتقد أنه مخطئ فيها، بدلاً من الناحية التي هو مصيب فيها؛ وأن نراه مفهوماً بالخصوص ليس في كليته، في نسقه الفكري المنسجم، بل بما هو متعارض مع هذه النقطة أو تلك من عقائد المرحلة، وباختصار أن نراه مفهوما فهما خاطئاً ومُجزء بالخصوص.

إن تاريخ ترجمة ***المحاضرات*** ذو دلالة: كان اليابانيون سباقين إلى ترجمتها (1928، ثلاث طبعات معادة 1940-1941-1950) ومنافسين بذلك تقريباً الطبعات والطبعات الفرنسية المعادة (-1931-1949-1955-1960-1967-1916-1922). ثم جاءت الترجمة الألمانية (1931، لم يعد طبعها أبداً)

والروسية (1933، لم يعد طبعها) والإسبانية (1945،1955،1959،1961، لكنها كلها في بوينوس إيرس).

لم تظهر أول ترجمة أنجلو - ساكسونية إلا في 1959 (نيويورك وتورونتو ولندن، أعيد طبعها سنة 1966). ويحصي دي مورو كذلك طبعة بولونية (1961) وأخرى هنغارية (1967)؛ وأخيراً وليس بآخر ينبغي ذكر ترجمته الخاصة به إلى الإيطالية، وهي الأولى والأغنى دون شك بصفتها طبعة بيبليوغرافية ونقدية (1967) .

وصحيح بالتأكيد أن حضور فكر سوسير بعد 1916 أثر تقريباً على كل اللسانيات، بكيفية أو بأخرى، بما ولده في غالب الأحيان من ردود فعل أكثر مما ولده من موافقة. وقد يكون صحيحاً أن أثر سوسير في اليابان كان «هائلاً» (ص 337 corsa)؛ لكن في غياب اتصالات موسعة فنحن لا ندرك انعكاساتها.

في أوروبا، يمكن الاعتقاد بأن سوسير عبْر النقاشات والمعارضات نفسها تغلب على الحساسيات المقاومة، لكن ببطء شديد. وفي الوقت الذي تدفقت فيه اللسانيات الأمريكية على أوروبا بعد 1945-1950، كان كل العالم اللساني تقريباً ملوناً بالسوسيرية حتى لو لم يكن سوسيرياً. استفادت روسيا في البداية منذ 1917 من الحضور الفعال لكارشيفسكي الذي كان تلميذاً لسوسير من 1905إلى 1913. لكن نظريات مار Marr والأحكام الفظة للفلاسفة السوفيات بعد 1935 أعاقت كثيراً تمثل السوسيرية لنحو ثلاثين سنة تقريباً.

في الولايات المتحدة حيث قرئت المحاضرات منذ ظهورها، قاد الطابع المتعنت لبلومفيلد، وربما رغبته الطاغية لتأسيس أول لسانيات تتسم

بالعلمية التامة، إلى السكوت دون استثناء عن اسم وفكر سوسير. وهذا هو السبب الرئيسي في أن ***المحاضرات*** انتظرت ترجمتها الأنجلو-أمريكية زهاء نصف قرن.

هل يمكن أن نقول أيضاً مثل دي مورو (ص 336، *corso*_) بأن فرنسا «هو البلد الذي كان فيه تأثير سوسير مشهودا أكثر على المستوى العالمي»؟ إن دي مورو الذي يرى الأشياء من الخارج (والذي يحكم عليها دون شك بالمقارنة مع النبذ الذي كان سوسير ضحية له في إيطاليا) متفائل أكثر من اللازم. صحيح أن اللسانيات الفرنسية لبداية القرن العشرين عرفت سوسير لكن لا يمكن أن نقول بأنها تبنته، وأقل من ذلك أن تكون تمثلته. ما يخدع في هذه النقطة هو الإعجاب والاحترام اللذان حظي بهما مؤلف **البحث *حول نسق المصوتات الهند أوروبية*** من طرف لسانيين مقارنين بالخصوص. وما نصيب مؤلف ***المحاضرات***؟.

إذا تتبعنا ردود فعل مايي خطوة خطوة فإن الأمر بديهي. ***البحث والبحث*** وحده هو الذي ينال التقدير التقريظي[17]. سيبقى مايي دائماً متحفظا ومُقْتِرا على ***المحاضرات***، وهو موقف يتناقض بالملموس مع ما قاله مثلاً عن نظريات غيستاف غيوم Gustave Guillaume التي حياها سنة1931 واعتبر أنها القاعدة الوحيدة التي كان من الممكن عبرها تأسيس «نحو عام»، وأنها التوضيح لما لم يُبينه سوسير (fasc- 2،1931،BSL)، وهو موقف يتعارض أيضاً مع انفتاحه الذهني الذي عبر عنه، في 1929، إزاء الفونولوجيا المبتدئة (أنظر ص 117 *La linguistique*،1967، ا،).

---

17 cf. Mounin, La notion de système chez Antoine Meillet, dans La Linguistique, 1966, 1, pp. 17-29.

في ***المدخل*** الذي يقدم به الجزء الأول من كتابه ***اللسانيات العامة واللسانيات التاريخية*** بعد عشر سنوات من نشر المحاضرات (1926)، يقول في معرض حديثه عن ضرورة لسانيات عامة: «بينت ***مدونات*** دروس ف. دوسوسير المطبوعة بعنوان ***محاضرات في اللسانيات العامة*** كيف يمكن أن نرتبها [اللسانيات] ترتيباً أولياً، لكن يبقى لنا إنجاز عمل كبير لترتيب الظواهر اللسانية من وجهة نظر اللغة نفسها» (ص 11). إن الشرح النصي ليس ضروريا لتبيين تردد وتحفظ هذه السطور القليلة التي هي الوحيدة المخصصة لسوسير. وعشية موته في آخر ما كتبه دون شك، في مقال *"البنية العامة للظواهر اللسانية"* الذي خصصه للجزء الأول من ***الموسوعة الفرنسية*** (ص 1-32 ومايليها، يناير 1937 *folia*)) يتجاور سوسير مع فينك Finck وغابيلنتز Gabelentz وشوخاردت schuchardt دون ترتيب ملموس. أما القسم المسمى «تأثير أفكار سوسير» فإنه يكتفي بذكر بالي وسيشهاي وبودوان دو كورتني وتروبتسكوي.

وقد يؤكد البحث المطول عند فاندرييس ومارسيل كوهن وم.لوجون عدم تبني ماهو جوهري في السوسيرية من لدن التلاميذ الذين تلقوا تعليمهم مباشرة على يدي مايي. إن مثال بنفينست المفضل ذو دلالة: قبل 1939 كان المقال المذكور أعلاه حول *"طبيعة العلامة اللسانية"* سلبياً للغاية. ومع أنه أشاد بسوسير وبخصوبة نظريته فإنه يرى هذه الخصوبة في التناقض الذي تثيره والذي يسمح، كما يعتقد، «بتأكيد دقة الفكر السوسيري فيما وراء سوسير» (مقال مذكور، ص 55) بتحطيم عموده الرئيسي أي اعتباطية العلامة لتعويضه بنظرية «الطابع المطلق للعلامة اللسانية» (ن.م).

وينبغي انتظار خمس عشرة سنة في المقال التلخيصي الرائع «الاتجاهات الحديثة في اللسانيات العامة» [1954] الذي أعيد نشره في كتاب ***مشاكل***...، (ص 3-17) لكي نرى «جدة وجهة النظر السوسيرية» (ص 5) موضوعةً في محلها المناسب من طرف بنفينست. لكن ***المحاضرات*** ما تزال هنا محددة تحديداً ضيقاً باعتبارها «كتاباً صادراً بعد وفاة صاحبه، محرراً من خلال ما دونه بعض التلاميذ، ومجموعة من المختصرات الممتازة يستدعي كل واحد منها تأويلاً وما يزال بعضها مثيراً للخلاف» (ص 7).

ويعتقد المؤلف، وهو في ذلك يصف بالتأكيد منهج تفكيره الخاص، بأنه خلال تطور اللسانيات العامة في القرن العشرين «لم يكشف تكاثر الأعمال بصورة مباشرة عن التحولات العميقة التي طرأت على منهج وروح اللسانيات منذ بضع عشريات، بل أخفاها بالأحرى» (ص 4)، كما يعتقد بأن تاريخ ظهور «التجديد الباهر للرؤى النظرية والتأكيدات المذهبية» لا يرتبط بسوسير (1916) وسابير (1922) ولا بتروبتسكوي (1928) وبلو مفيلد (1932)، بل بالعدد الخاص لمجلة علم النفس *journal de psychologie* حول اللغة (1933). ونجد دون شك في سنة 1963 بقلم بنفينست تقديراً كاملاً وإيجابياً للفكر السوسيري، حيث يعترف بأن «جزءاً من تعاليمه أيضاً (...) بقي ساكناً إلى حد ما وغير منتج لفترة طويلة» (ص 43)، وهو حدث يعزوه، عن خطإ بالتأكيد، إلى تاريخ ظهور الكتاب «بين جلجلة أسلحة» الحرب العالمية الأولى (ص 45).

إن قراءة الفلاسفة، الذين لم ينبههم حقيقة لا الضجيج النظري الكبير الذي أحدثه اللسانيون ولا الإجماع الكبير حول سوسير، كانت ناقصة لمدة طويلة. لم يعرف كروتشه Croce ***المحاضرات***. ويمكن الإعتقاد بأنه قبل 1945 كان بيهلر من القلائل الذين درسوها. ويرى دي مورو عن صواب بأن أستاذ

جنيف «معروف أقل عند الفلاسفة» منه عند اللسانيين (ص *corso*،346) وأنه بعد سنة 1945 فقط «يمكن أن نلاحظ اهتماما متزايدا ***بالمحاضرات*** من لدن الفلاسفة كذلك» (ص *corso*،343).

في الواقع، يمكن أن نتتبع بسرعة انبعاث الاهتمام بسوسير، بل كذلك ربط الاتصال بينه وبين الفلاسفة على الأقل بالنسبة لفرنسا. ربما بدأ كل شيء بكيفية غير مباشرة مع ليفي ستراوس Levi-strawss عندما اكتشف سنة 1945، في مقاله الهام لمجلة *word* عن التحليل البنيوي في اللسانيات والأنثربولوجيا، فضائل اللسانيات - والفونولوجيا بالخصوص- بصفتها «علماً رائداً» للعلوم الإنسانية (هذا كلامه).

لكن الدراسة المفصلة للعلائق بين ليفي ستراوس واللسانيات تنتظر الإنجاز. وستبين دون شك بأن سوسير يحتل فيها مكاناً أصغر من جاكبسون وتروبتسكوي، هذا إذا كان ممكنا أن نتحدث عن مكان في هذا الصدد؛ إضافة إلى أنه لم يُستوعب جيداً. (على ماذا يدل ملفوظ مثل هذا: «المطبخ الفرنسي دياكروني؟» ***الأنثربولوجيا***...ص 99).

يكمن فضل ليفي ستراوس الحقيقي في ربطه اللسانيات بالعلوم الإجتماعية بهاته الطريقة أو تلك، ليس في اتجاه دوركايم، ما يي، ولكن في الإتجاه المعاكس: تروبتسكوي، ليفي شتراوس.

إن دور ميرلو بونتي Merleau-Ponty في إقامة هذا الربط مع السوسيرية هو أكثر عمقاً مع أنه أقل وضوحاً بلا شك من دور ليفي ستراوس. تتنامى الإحالات إلى سوسير منذ **الفينومينولوجيا والإدراك** (1945) إلى ***علامات*** (1960) وهي إحالات مركزية دائماً (أنظر مداخلته في ندوة الفينومينولوجيا، بروكسيل 1951 في ***علامات*** *signes* ص105 وما بعدها؛ ثم

المقال الهام عن *أصوات الصمت*" الذي يبدأ هكذا «ما تعلمناه من سوسير هو...» في **علامات** ص 49.

ومن شبه المؤكد أننا ندين لميرلوبونتي بمقال ر.ل. فاغنر R.L wagner الهام عن ***المحاضرات*** والسوسيرية الصادر في ***الأزمنة الحديثة*** في مارس 1948، وهو علامة زمنية. لكن قراءة ميرلوبونتي تبقى تأويلية ومشوهة إلى حدٍ كبير، فهو منذ 1945 يكيف سوسير حسب فينومينولوجيته الخاصة به. وإعداده لمفهومي المعنى والدلالة اللذين يميزهما تارة ويخلط بينهما تارة أخرى، ثم مفهوم الوظيفة الدالة عنده، ليس عملياً لكل هذا صلة بسوسير إلا من حيث المصطلحات. ثم إن تمييزه بين الكلام المتكلِم والكلام المتكلَم به (*parole parlante et parole parlée*) ليس له صلة بثنائية **الكلام واللسان** السوسيرية ويندرج في نطاق الفلسفة الاستبطانية حول علاقات اللغة بالفكر، مما يقوده إلى نزعة سوسيرية مؤولة من طرف غيستاف غيوم أو حتى نحو ما يسميه همبولدت innere sprachform أكثر منه نحو سوسير (**علامات**، ص 110-111).

باختصار: إن ميرلو بونتي شاهد على توغل السوسيرية عند الفلاسفة أكثر من كونه دليلاً على الاستعمال أو التأويل الفلسفي ***للمحاضرات***. وهو نفسه يتطلب شرحاً نقدياً مطولاً - ليس بسبب الأغلاط التي ارتكبها (هناك بعض منها مثل رفضه الدال لثنائية السانكرونية والدياكرونية، ***علامات*** ص 108) بل بسبب الإسقاطات الذاتية التي أخضع النصَّ السوسيري لها.

وبعد ميرلوبونتي، كان رولان بارث هو الوكيل الإشهاري الحقيقي الفعال جداً واللامع إلى حدٍ كبير الذي خدم الفكر السوسيري في ميدان العلوم الإنسانية. كان ذلك منذ المقالات التي ستشكل كتاب ***أساطير*** (1957)، أي منذ

سنوات 1954-1956 حيث تكاثرت الإحالات حرفياً إلى سوسير وإلى كل المصطلحات السوسيرية: العلامة بالخصوص والرمز والجبر اللساني والسميولوجيا والدال والمدلول واللسان والكلام، رامية في دفعة واحدة كل المعجم السوسيري إلى السوق الفكرية على مستوى الصفحات الثقافية للمجلات الأسبوعية.

وللأسف، تترافق هذه الشعبية الساحقة مع تشويه مستمر للمفاهيم السوسيرية الرئيسية. يخلط بارث أشياء متمايزة، مسمياً إياها علامات، كالعلامات الاعتباطية والرموز والمؤشرات والأعراض. كل شيء يتحول إلى علامة حسب تأويله وكل شيء يصبح لساناً بكيفية آلية. هكذا تلصق مقولات التحليل اللساني من الخارج على ظواهر كان ينبغي بالعكس أن نبين في البداية بأن لها جميعاً الخصائص التي ينسبها اللسانيون للغات.

إضافة إلى ذلك، فإن هذه الاصطلاحات السوسيرية المشوهة تستعمل بقدر كبير من الحرية المجازية: المصارعة على سبيل المثل هي في نفس المقال، ***كتابة*** ذات ***علامات*** وهي أيضاً ***كتابة شكلية***(!) ثم هي جبر وتمثيلية إيمائية ومشهد وأسطورة (ص 21،11). وماذا يعني هذا من وجهة النظر اللسانية: «الكولت[*] لغة» (ص 81)؟ وماذا تعني فقرة مثل هذه بصفتها تحليلاً لسانياً للظواهر المذكورة: .المعجم الرسمي للشؤون الإفريقية مسلم به إطلاقاً كما نظن. بمعنى أن ليست له أي قيمة تواصلية، بل له فقط قيمة زجرية. إنه إذن يشكل كتابة أي لغة مكلفة بإجراء توافق بين القواعد والظواهر. إنه بصورة عامة لغة تشتغل أساساً باعتبارها سَنناً، بمعنى «أن الكلمات فيه ذات علاقة منعدمة أو مضادة لمضمونها. إنه كتابة قد نستطيع

---

*- الكولت مسدس يعرف باسم مخترعه (المترجم).

تسميتها بأنها تجميلية لأنها تهدف إلى تغطية الظواهر بضجيج لغوي أو بالعلامة التامة للغة، إن أردنا» (ص 155)؛ لم يتخلص بارث أبداً من هذه التقريبية الصحافية بالرغم من الإثارة التي حققها تحليله النفسي السوسيولوجي.

إذا راجعنا كتاب *اللغة* (أشغال المؤتمر الثامن لجمعيات الفلسفة الناطقة باللغة الفرنسية. ج 1، 1966 ج 2، 1967) سنستطيع قياس المكانة الصغيرة التي ما زال يحتلها ما يمكن تسميته *بالخبر اللساني السوسيري المحض* في قسم الفكر الفلسفي الفرنسي الذي تمثله هذه الجمعيات. والإشارات الوحيدة والواضحة إلى سوسير في الجزء الثاني هي، إضافة إلى عرض وثائق مخصصة لسوسير، من انجاز اللغوي بنفينست الذي أشار في المحاضرة الافتتاحية بكيفية عابرة إلى جون هيبوليت Jean Hyppolite وإلى روني شيرر Rene Schaerer أيضاً في الاستنتاجات. وما دامت الإحالات إلى اللسانيين الآخرين الممثلين للسانيات الحالية تبقى هي نفسها ثانوية: بلومفيلد وتشومسكي وهيالمسليف وجاكبسون ومارتيني وسابير (مع بعض الإشارات إلى لسانيين حديثي العهد أو أقل شهرة مثل غيوم Guillaume ومايي وغريماس Greimas وفريي Frei وشتاينتال Steinthal)، فإننا نميل إلى الظن بأن المعلومات اللسانية المحض لكثير من الفلاسفة حول اللغة ما تزال جزئية وناقصة ومتفرقة؛ وبأن الفلسفة ما تزال دون شك بعيدة عن الاستفادة ما يمكنها أن تستفيده من اتصالها بلسانيات اليوم.

صحيح أن كل الأشياء تسير ببطء في ميدان مثل هذا، لكننا نتمنى أن تسير بسرعة أكثر. إن الخطر الراهن يظل مزدوجاً في الوقت الذي يتكاثر فيه العمل والروابط ما بين التخصصات. فإما أن العلوم الإنسانية، ومن ضمنها الفلسفة، لن تمارس ألبتة اللسانيات وإما أنها ستمارس «اللسانيات دون

اللسانيين» أكثر من اللازم. وفيما يخص هذه النقطة ما يزال تحذير بنفينست يستحق التأمل عندما يقول: «في نهاية المطاف ينبغي الاقتناع بهذه الحقيقة وهي أن التفكير حول اللغة لا يكون مثمراً إلا إذا انصب في البداية على اللغات الحقيقية» (*مشاكل*، (ص 1). إذا قرر المتخصصون وحتى الطلبة في العلوم الإنسانية والاجتماعية أن يتمرسوا قليلاً باللسانيات، وهم يعرفون سبب ذلك، من المفيد أن نقول لهم مجدداً دون غرور ولا شوفينية بأن عليهم أن يفعلوا ذلك مع اللسانيين وعند اللسانيين. وإذا قرروا أيضاً بأنه ينبغي العودة إلى سوسير، عليهم أن يعلموا جيداً بأن ما يتوجب أخذه هناك ليس استشهادات تصلح في كل مناسبة، ولكن رؤية نظرية جد منسجمة، بعيدة عنا زمنيا بما يكفي مع ذلك لأن لا تقبل أن تقرأ قراءة سطحية وبدون استعداد نقدي.

بيوغرافية سوسير

1857 ولادة فردناند دوسوسير يوم 26 نونبر. دراساته الأولى بثانوية هوفويل Hofwyl (بيرن).

1869 اتصاله بأدولف بيكتي مؤلف **الأصول الهند أوروبية** (-1863 1859).

1870 دراسته بمعهد مارتين (جنيف).

1872 مخطوط **دراسة عن اللغات**. آخر سنة بالمدرسة الإعدادية العمومية.

1873 دراسته بالثانوي.

1875 دراسة الفيزياء والكيمياء بجامعة جنيف.

1876 ثم قبوله عضوا بجمعية اللسانيات الباريسية (SLP). بدأ دراساته بلايبزيك.

1877 جمعية اللسانيات الباريسية تقرأ أربعة أبحاث أرسلها سوسير، منها على الخصوص **محاولة للتمييز بين مختلف [فونيمات] a الهند أوروبية**.

1877-1878 تحرير **بحث حول المصوتات الهند أوروبية**. نصف سنة من الدراسة ببرلين. كتب سوسير عرضا عن الطبعة

الثانية لأصول بيكتي في يومية جنيف (17-19-25 أبريل). دجنبر: صدور البحث بلايبزيك.

1880 فبراير: أتى سوسير إلى لايبزيك لمناقشة رسالة الدكتوراه عن الإضافة المطلقة في السنسكريتية.

مارس- شتنبر (؟): سفر دراسي إلى ليتيانيا.

نونبر: أتى سوسير إلى باريس لمتابعة دروس ميشال بريال مع دروس أخرى.

1881 عُين في سن الرابعة والعشرين أستاذا محاضرا بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا.

1882 أصبح كاتبا مساعدا ل ج.ل.ب(SLP) ومدير نشر أبحاث هذه الجمعية. التقى ببودوان دوكورتني.

1889-1890 توقف لأسباب صحية و عاد إلى جنيف.

1890-1891 استأنف دروسه بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا.

1891 دخل إلى جنيف حيث أنشئ له كرسي للتدريس.

1891-1896 أستاذ غير عادي.

1896 أستاذ رسمي.

1906-1907 أعطى لأول مرة درسا في اللسانيات العامة.

1908 أهدى له تلاميذه البارسيون والجنيفيون كتابا تكريميا في يوليوز. (الذكرى الثلاثون للبحث).

1908-1909 الدرس الثاني في اللسانيات العامة.

1909 عين عضوا مراسلا لمعهد فرنسا.

1910-1911 الدرس الثالث في اللسانيات العامة.

1912 مرض فأوقف دروسه قبل نهاية السنة الجامعية.

1913 توفي بقصر فيفلون يوم 27 فبراير.

ثبت المصطلحات

- abstract	مجرد
- accent	نبر
- accidentel	عرضي
- acte	فعل
- acuité	حدة
- algèbre	جبر
- algébrique	جبري
- allitération	جناس
- anagrammes	أناغرامات
- aphasie	حبسة
- aperture	انفتاح
- appendice	تذييل
- arbitraire	اعتباطي
- articulé	منطوق
- aspiré	نفسي
- bilabialité	شفتانية
- Chaîne parlée	سلسلة كلامية
- Champ de signification	حقل معنوي

- Classification	تصنيف
- Code	سنن
- Coercition	إلزام
- Combinaison	تأليف
- Commutation	استبدال
- Concept	مفهوم
- Conceptuel	تصوري، مفهومي
- Consonne	صامت
- Consubstantialité	وحدة جوهرية
- Continu	متصل
- Contrainte	إلزام
- Conventionnel	اتفاقي
- Couple	زوج
- Cordes vocales	حبلان صوتيان
- Définition	تعريف
- Dérivation	اشتقاق
- Diachronique	دياكروني، تعاقبي
- Dichotomie	ثنائية
- Différence	اختلاف
- Discontinu	متقطع
- Discret	منفصل
- Distinctif	تمييزي

- Distorsion	تشويه
- Durée	مدة
- Dental	أسناني
- Enoncé	ملفوظ
- Epistolophobie	رهبة المراسلة
- Etat	حالة
- Fait	ظاهرة
- Fermé	مغلق
- Français standard	فرنسية فصحى
- Fréquence	تردد
- Fricatif	احتكاكي
- Formalisé	مصورن
- Forme	شكل
- Furtif	خفي
- Général	عام
- Génétique	وراثي
- Génitif	إضافة
- Grammaire comparée	نحو مقارن
- Grasseyé	ملثوغ
- Guttural	طبقي
- Idiome	لهجة
- Image acoustique	صورة سمعية

- Immotivé	غير معلل
- Impératif	أمري
- Incorporel	غير مادي
- Indice	مؤشر
- Indo-européen	هند أوروبي
- Infinitif	مصدر
- Iranien	لغة إيرانية
- Irlandais	لغة إيرلاندية
- Institution	مؤسسة
- Intensité	شدة
- Intonation	تنغيم
- Introspection	استبطان
- Junggrammatiker	نحويون جدد
- Labiodental	شفوي أسناني
- Langage	لغة
- Langue	لسان
-Linéaire	خطي
- Linéarité	خطية
- Linguistique historique	لسانيات تاريخية
- Lituanien	لغة ليتيانية
- Locuteur	متكلم
- Mathématiques	رياضيات

- Mémoire	بحث
- Mentalisme	نزعة ذهنية
- Mécanisme	آلية
- Mélodique	إيقاعي
- Message	إرسالية
- métaphorique	استعاري
- Mode	تقليعة
- Morphologie	علم الصرف
- Mot	كلمة
- Motivé	معلل
- Mouillé	حنكي
- Naturel	طبيعي
- Nécessaire	ضروري
- Nasal	أنفي
- Notes	مدونات
- Onomatopée	محاكاة صوتية
- Opératoire	إجرائي
- Opposition	تعارض
- Ouvert	مفتوح
- Paire	زوج
- Paléontologiste	عالم إحاثي
- Parler	لهجة

- Parole	كلام
- Philologie	فيلولوجيا
- Phonation	تصويت، نطق
- Phonatoire	تصويتي، نطقي
- Phonème	فونيم
- Phonétique	فونتيكا
- Phonique	صوتي
- Phonologie	فونولوجيا
- Positif	وضعي
- Produit	منتوج
- Proportionnel	تناسبي
- Prospectif	استباقي
- Psychologisme	نزعة نفسية
- Psychophysique	نفسي فيزيقي
Quatrième proportionnelle	(قاعدة) المتناسبة الرابعة
- Sanskrit	لغة سنسكريتية
- Sémantique	علم الدلالة
- Sémiologie	سميولوجيا
- Signaux	إشارات
- Signe	علامة
- Signifiant	دال
- Signifié	مدلول

- Sociologie	علم الاجتماع
- Sociologisme	نزعة سوسيولوجية
- Son	صوت
- Sonore	مجهور
- Sound symbolisme	رمزية صوتية
- sourd	مهموس
- sources manuscrites	أصول مخطوطة
- Sous système	نسق فرعي، نسق أصغر
- Souvenirs	ذكريات
- Spécificité	خصوصية
- Statique	سكوني
- Subordonné	تابع
- Symbole	رمز
- Symétrie	تناسب
- symptôme	عرَض
- Synchronique	سانكروني
- Syntaxe	تركيب
- Système	نسق
- Réalisations	تحققات
- Registre	سِجل
- Rétrospectif	استعادي
- Roulé	مكرر

- Tableau	لوحة
- Terme	طرف
- Théorème	نظرية
- Timbre	جرْس
- Tradition	سُنة
- Transcription	كتابة صوتية
- Valeur	قيمة
- Variantes	بدائل
- Vélaire	طبقي
- Vibrations	ذبذبات
- Vibration apicale	ارتجاج لساني
- Vocabulaire	مفردات
- Vocalique	صائتي
- Voyelle	مصوت
- Unité	وحدة
- Uvulaire	لهوي

ثبت الأعلام

- Alquié	ألكيي
- Bacon	باكون
- Bally	بالي
- Barthes	بارث
- Benveniste	بنفينست
- Bloomfield	بلومفيلد
- Bopp	بوبّ
- Bourloud	بورلو
- Bréal	بريال
- Brugmann	بروغمان
-Brunot	برينو
- Bühler	بيهلر
- Buyssens	بويسنس
- Caille	كاي
- Chakhamatov	شاخماتوف
- Chomsky	تشومسكي
- Cohen	كوهن
- Compte	كومت
- Condillac	كوندياك
- Croce	كروتشيه
- Curtius	كورتيوس

- Cuvillier	كيفيلي
- Darmesteter	دارميستتير
- Daval	دفال
- De Courtenay	دو كورتني
- De Mauro	دي مورو
- De Saussure	دو سوسير
- Desgenettes	ديجينيت
- Doroszewski	دارشيفسكي
- Durkheim	دوركايم
Engler	أنغلر
- Finck	فينك
- Foucault	فوكو
- Foulquié	فولكيي
- Frei	فراي
- Galilée	غاليلي
- Gaudel	غوديل
- Grammont	غرامون
- Greimas	غريماس
- Guillaume	غييوم
- Guillemain	غويلمان
- Gusdorf	غوسدورف
- Harris	هاريس
- Hendriksen	هاندريكسون

- Hermann	هرمان
- Hollyman	هوليمان
- Huisman	ويسمان
- Humboldt	همبولدت
- Hyppolite	هيبوليت
- Ivic	ايفيتش
- Jespersen	جيسبرسن
- Kruszewski	كروشفسكي
- Lalande	لالاند
- Lefèvre	لوفيفر
- Leibniz	لايبنز
- Lejeune	لوجون
- Le Roy	لوروا
- Leskien	ليسكيان
- Lessing	ليسينغ
- Leverrier	لوفيريي
- Levi	ليفي
- Linné	ليني
- Littré	ليتري
- Locke	لوك
- Marr	مار
- Martinet	مارتيني
- Marty	مارتي

- Meillet	مايي
- Meynard	مينار
- Morris	موريس
- Müller	ميلر
-Naville	نافيل
- Noreen	نورين
- Passy	باسي
- Peirce	بـيرس
- Pictet	بيكتي
- Poe	بـو
- Ponty	بونتي
- Prieto	برييتو
- Schaerer	شيرر
- Schleicher	شليشر
- Schuchard	شوخاردت
- Sechehaye	سيشهاي
- Steinthal	شتاينتال
- Stern	ستيرن
- Strauss	ستراوس
- Sweet	سويت
- Tarde	تارد
- Thurot	تيرو
- Troubetzkoy	تـروبتسكوي

- Vendryes	فاندرييس
- Vergez	فرجيس
- Wagner	فاغنر
- Wartburg	وارتبورغ
- Whitney	وايتني
- Wintler	وينتلر
- Zabrowski	زابروفسكي

فهرس المحتويات

العنوان الأصلي للكتاب هو

Saussure ou le structuraliste

Sans le savoir

Georges Mounin

Editions Seghers

Paris, 1968

سوسير أو أصول البنيوية

طرح سوسير في هذه المحاضرات تصورا جديدا للسانيات يقوم على مجموعة من المفاهيم الإجرائية التي أصبحت إرثا للمدارس البنيوية بعده مثل النسق واللسان والكلام والدال والمدلول والسانكرونية والدياكرونية والعلاقات المركبية والترابطية.

ولعل المسألة المركزية التي استأثرت باهتمام سوسير كانت تحديد موضوع ومنهج اللسانيات فجاء تمييزه بين اللغة والكلام واللسان ليؤكد بأن اللسان هو موضوعها الحقيقي. كما أن تمييزه بين السانكرونية والدياكرونية كانت غايته تحديد المنهج الكفيل بدراسة اللسان (السانكرونية) والنظر إليه باعتباره نسقا مكونا من وحدات متعارضة. ويبدو أن الثنائية الأخيرة توضح كيفية اشتغال اللسان الذي ينتظم بحسب محورين هما المحور المركبي والمحور الترابطي. الأول ذو بعد أفقي ومرتبط بالطبيعة الخطية للعلامات. أما الثاني فهو ذو بعد عمودي وله صلة بما يقيمه الذهن من علاقات بين وحدات لغوية لها سمات مشتركة.



تليفون: 00961 3 359788 فاكس: 00961 7 241032
ص. ب: 11/3847 بيروت - لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com

